البَابُ الخَامِسُ
في آداب المتعلّم والمعلّم

أمَّا المتعلِّمُ : فآدابُهُ ووظائفُهُ الظاهرةُ كثيرةٌ ، ولكنْ تَنْظِمُ تفاريعَها عشرُ جملٍ :

الوظيفةُ الأولىٰ : تقديمُ طهارةِ النفْسِ عنْ رذائلِ الأخلاقِ ومذمومِ الأوصافِ :

إذِ العلمُ عبادةُ القلبِ ، وصلاةُ السرِّ ، وقربةُ الباطنِ إلى اللهِ تعالىٰ ، وكما لا تصحُّ الصلاةُ التي هيَ وظيفةُ الجوارحِ الظاهرةِ إلا بتطهيرِ الظاهرِ عنِ الأحداثِ والأخباثِ . . فكذلكَ لا تصحُّ عبادةُ الباطنِ وعمارةُ القلبِ بالعلمِ إلا بعدَ طهارتِهِ عنْ خبائثِ الأخلاقِ وأنجاسِ الأوصافِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بُنِيَ الدِّينُ على النظافةِ »[1] ، وهوَ كذلكَ باطناً وظاهراً .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ تنبيهاً للعقولِ علىٰ أنَّ الطهارةَ والنجاسةَ غيرُ مقصورةٍ على الظواهرِ المدركةِ بالحسِّ ، فالمشركُ قدْ يكونُ

---

(١) رواه الرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (١/ ١٧٦) بلفظ : « فإن الله بنى الإسلام على النظافة » ، وعند الترمذي (٢٧٩٩) : « إن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة . . . » .

نظيفَ الثوبِ مغسولَ البدنِ ، ولكنَّهُ نجسُ الجوهرِ ؛ أي : باطنُهُ ملطَّخٌ بالخبائثِ .

والنجاسةُ عبارةٌ عمَّا يُجتنبُ ويُطلبُ البعدُ منهُ ، وخبائثُ صفاتِ الباطنِ أهمُّ بالاجتنابِ ؛ فإنَّها معَ خبثِها في الحالِ مهلكاتٌ في المآلِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تدخلُ الملائكةُ بيتاً فيهِ كلبٌ »[1] ، والقلبُ بيتٌ هوَ منزلُ الملائكةِ ومهبطُ أثرِهِمْ ومحلُّ استقرارِهِمْ ؛ والصفاتُ الرديئةُ مثلُ الغضبِ والشهوةِ ، والحقدِ والحسدِ ، والكبرِ والعجبِ ، وأخواتِها . . كلابٌ نابحةٌ ؛ فأنَّىٰ تدخلُهُ الملائكةُ وهوَ مشحونٌ بالكلابِ ، ونورُ العلمِ لا يقذفُهُ اللهُ في القلبِ إلا بواسطةِ الملائكةِ ؟! ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ ، وهٰكذا ما يرسلُ مِنْ رحمةِ العلومِ إلى القلوبِ إنَّما تتولاها الملائكةُ الموكَّلونَ بها ، وهمُ المقدَّسونَ المطهَّرونَ المبرَّؤونَ عنِ المذمومات ، فلا يلاحظونَ إلا طيِّباً ، ولا يَعْمُرُونَ بما عندَهُمْ مِنْ خزائنِ رحمةِ اللهِ إلا طيباً طاهراً[2] .

---

(١) رواه البخاري (٣٢٢٥) ، ومسلم (٢١٠٦) .

(٢) قال المؤلف رحمه الله تعالىٰ : (**فإن قلت** : كيف آمن من كفر وأطاع من عصىٰ واهتدىٰ من ضل ؛ إذ كانت الشياطين لا تفارق قلب الكافر والعاصي والضال بما يبثون فيه من الأخلاق المذمومة ، وأصنافُ الخير إنما ترد من الله عز وجل بواسطة الملائكة ، وهي لا تدخل موضعاً يحل فيه شيء مما ذكر ، وإذا لم تدخل . . لم يصل إلى الخير الذي يكون معها ولم تصل إليه ، فعلىٰ هٰذا يجب أن يبقىٰ كل كافر علىٰ حاله ، ومن لم يخلق مؤمناً معصوماً . . فلا سبيل له إلى الإيمان علىٰ هٰذا المفهوم . **فالجواب** : إن للشياطينِ =

ولستُ أقولُ : المرادُ بلفظِ البيتِ هوَ القلبُ ، وبالكلبِ هوَ الغضبُ والصفاتُ المذمومةُ ، ولكنِّي أقولُ : هوَ تنبيهٌ عليهِ ، وفرقٌ بينَ تغييرِ الظواهرِ إلى البواطنِ وبينَ التنبُّهِ للبواطنِ مِنْ ذكرِ الظواهرِ معَ تقريرِ الظواهرِ ، ففارقَ الباطنيةَ بهـٰذهِ الدقيقةِ ، فإنَّ هـٰذا طريقُ الاعتبارِ ، وهوَ مسلكُ العلماءِ والأبرارِ ؛ إذْ معنى الاعتبارِ أنْ تعبرَ ممَّا ذكرَ إلىٰ غيرِهِ ، فلا تقتصرُ عليهِ ؛ كما يرى العاقلُ مصيبةً لغيرِهِ فيكونُ لهُ فيها عبرةٌ بأنْ يعبرَ منها إلى التنبُّهِ لكونِهِ أيضاً عرضةً للمصائبِ ، وكونِ الدنيا بصددِ الانقلابِ ؛ فعبورُهُ مِنْ غيرِهِ إلىٰ نفسِهِ ، ومِنْ نفسِهِ إلىٰ أصلِ الدنيا عبرةٌ محمودةٌ .

فاعبرْ أنتَ أيضاً مِنَ البيتِ الذي هوَ بناءُ الخلقِ إلى القلبِ الذي هوَ بيتٌ مِنْ بناءِ اللهِ تعالىٰ ، ومِنَ الكلبِ الذي ذُمَّ لصفتِهِ لا لصورتِهِ وهوَ ما فيهِ مِنْ سَبُعيَّةٍ ونجاسةٍ إلىٰ روحِ الكلبيةِ وهيَ السبُعيَّةُ .

واعلمْ : أنَّ القلبَ المشحونَ بالغضبِ ، والشَّرَهِ إلى الدنيا ، والتكالبِ عليها ، والحرصِ على التمزيقِ لأعراضِ الناسِ . . كلبٌ في المعنىٰ ، وقلبٌ في الصورةِ ، فنورُ البصيرةِ يلاحظُ المعانيَ دونَ الصورِ ؛ والصورُ في هـٰذا

= غفلات ، وللأخلاق المذمومة عزفات ، كما أن للملائكة غيبات ولتواتر الخير عليها فترات ، فإذا وجد الملك قلباً خالياً ولو زمناً فرداً . . حلَّ فيه ، وأراه ما عنده من الخير ، فإن صادف منه قبولاً ، ولما عَرَضَ عليه تشوُّفاً ونزوعاً . . أورد عليه ما يملؤه ويستغرق لبَّه ، وإن صادف منه ضجراً ، وسمع منه لجنود الشياطين استغاثةً ، وبالأخلاق الكلابية استعانةً . . رحل عنه وتركه) . « الإملاء » (ص٢٣) .

العالمِ غالبةٌ على المعاني ، والمعاني باطنةٌ فيها ، وفي الآخرةِ تتبعُ الصورُ المعانيَ ، وتغلبُ المعاني ، فلذلكَ يُحشرُ كلُّ شخْصٍ علىٰ صورتِهِ المعنويةِ ، فيُحشرُ الممزِّقُ لأعراضِ الناسِ كلباً ضارياً ، والشرِهُ إلىٰ أموالِهمْ ذئباً عادياً ، والمتكبِّرُ عليهِمْ في صورةِ نمرٍ ، وطالبُ الرئاسةِ في صورةِ أسدٍ .

وقدْ وردتْ بذلكَ الأخبارُ ، وشهدَ بهِ الاعتبارُ عندَ ذوي البصائرِ والأبصارِ[1] ، وشهدَ به شواهدُ الرؤيا ؛ فإنَّ النائمَ لما بَعُدَ عنْ عالمِ المحسوساتِ . . قربَ منْ ذلك العالمِ ؛ إذِ النومُ أخو الموتِ ، فيرىٰ في النومِ الموصوفينَ بهـٰذهِ الصفاتِ علىٰ هـٰذهِ التي ذكرناها[2] .

فإنْ قلتَ : كمْ مِنْ طالبِ رديءِ الأخلاقِ حصَّلَ العلومَ !

---

(١) فما جادت به قريحة المؤلف من لطائف إشارات النصوص دليلُ فهم واستبصار ، قال رحمه الله تعالىٰ : (ولا نكْرَ في ذلك إذا دلَّ عليه العلم وجملة الاستنباط ، ولم تمجه القلوب المستضاءة ، ولم تصادم به شيئاً من أركان الشريعة ، فلا تكن جاحداً ، ولا تجزع من تشنيع جاهل ولا من نفور مقلد ؛ فكثيراً ما ورد شرع مقرون بسبب ، فرأىٰ أهل الاعتبار وجه تعدِّيه عن سببه إلىٰ ما في معناه ومشابهِ له من الجهة التي تصلح أن يعديها إليه ، ولولا ذلك . . لما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ربَّ مبلغ أوعىٰ من سامع ، وحامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه ») . « الإملاء » (ص٢٣) .

(٢) من قوله : (وشهد به شواهد) إلىٰ قوله : (التي ذكرناها) زيادة من (أ) ، ويؤكد نسبتها له ما في « كيمياء السعادة » (ص١٢٠) ، والله أعلم .

فهيهاتَ ما أبعدَكَ عَنِ العلْمِ الحقيقيِّ النافعِ في الآخرةِ الجالبِ للسعادةِ ؛ فإنَّ مِنْ أوائلِ ذلكَ العلمِ أنْ يظهرَ لهُ أنَّ المعاصيَ سمومٌ قاتلةٌ مهلكةٌ ، وهلْ رأيتَ مَنْ يتناولُ سمّاً معَ علمِهِ بكونِهِ سمّاً قاتلاً ؟!

إنَّما الذي تسمعُهُ مِنَ المترسِّمينَ حديثٌ تلقَّفُوهُ ، يوردونَهُ بألسنتِهِمْ مرَّةً ، ويرددونَهُ بقلوبِهِمْ أخرىٰ ، وليسَ ذلكَ مِنَ العلمِ في شيءٍ ؛ قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ليسَ العلمُ بكثرةِ الروايةِ ، إنَّما العلمُ نورٌ يُقذفُ في القلبِ)[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : (إنما العلمُ الخشيةُ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾)[2] .

وكأنَّهُ إشارةٌ إلىٰ أخصِّ ثمراتِ العلمِ ، ولذلكَ قالَ بعضُ المحققينَ : معنىٰ قولِهِمْ : (تعلَّمْنا العلمَ لغيرِ اللهِ ، فأبى العلمُ أنْ يكونَ إلا للهِ)[3] : أنَّ العلمَ أبَىٰ وامتنعَ علينا ، فلمْ تنكشفْ لنا حقيقتُهُ ، وإنَّما حصلَ لنا حديثُهُ وألفاظُهُ .

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٨٦٧) وفيه : (ولكن العلم الخشية) كما هو في الخبر اللاحق .

(٢) وهو ـ كما سبق ـ لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وهو في « الحلية » (١/ ١٣١) ، وانظر « الدر المنثور » (٧/ ٢٠) .

(٣) هو قول سفيان الثوري كما صرح به الإمام الغزالي في كتاب (العزلة) .

فإنْ قلتَ : إنِّي أرىٰ جماعةً مِنَ الفقهاءِ المحقِّقينَ برَّزوا في الفروعِ والأصولِ ، وعُدُّوا مِنْ جملةِ الفحولِ ، وأخلاقُهُمْ ذميمةٌ لمْ يتطهَّروا منها .

فيقالُ : إذا عرفتَ مراتبَ العلومِ ، وعرفتَ علمَ الآخرةِ . . استبانَ لكَ أنَّ ما اشتغلوا بهِ قليلُ الغَناءِ مِنْ حيثُ كونُهُ علماً ، وإنَّما غناؤُهُ مِنْ حيثُ كونُهُ عملاً للهِ تعالىٰ ، إذا قُصِدَ بهِ التقرُّبُ إلى اللهِ تعالىٰ .

وقدْ سبقَ إلىٰ هٰذا إشارةٌ ، وسيأتيكَ فيهِ مزيدُ بيانٍ وإيضاحٍ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ[1] .

الوظيفةُ الثانيةُ : أنْ يقلِّلَ علائقَهُ مِنْ أشغالِ الدنيا ويبعدَ عَنِ الأهلِ والوطنِ :

فإنَّ العلائقَ شاغلةٌ وصارفةٌ ، وما جعلَ اللهُ لرجلٍ مِنْ قلبينِ في جوفِهِ ، ومهما توزعتِ الفكرةُ . . قَصُرَتْ عنْ درْكِ الحقائقِ ، ولذلكَ قيلَ : (العلمُ لا يعطيكَ بعضَهُ حتَّىٰ تعطيَهُ كُلَّكَ ، فإذا أعطيتَهُ كُلَّكَ . . فأنتَ مِنْ إعطائِهِ إيَّاكَ بعضَهُ علىٰ خطرٍ)[2] .

والفكرةُ المتوزِّعَةُ علىٰ أمورٍ متفرِّقةٍ كجدولٍ تفرَّقَ ماؤُهُ ، فنَشَفَتِ الأرضُ بعضَهُ ، واختطفَ الهواءُ بعضَهُ ، فلا يبقىٰ منهُ ما يجتمعُ ويبلغُ المُزْدَرَعَ[3] .

---

(١) في ذكر العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة .

(٢) الفقيه والمتفقه (٨٦٤) ، والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٥٧٠) .

(٣) **المزدرع** : موضع الزراعة .

الوظيفةُ الثالثةُ : ألا يتكبَّرَ على العلمِ ولا يتأمَّرَ على المعلِّمِ :

بلْ يلقي إليهِ زمامَ أمرِهِ بالكلِّيَّةِ في كلِّ تفصيلٍ ، ويذعنُ لنصحِهِ إذعانَ المريضِ الجاهلِ للطبيبِ المشفقِ الحاذقِ .

وينبغي أنْ يتواضعَ لمعلِّمِهِ ويطلبَ الثوابَ والشرفَ بخدمتِهِ ، قالَ الشعبيُّ : صلَّىٰ زيدُ بنُ ثابتٍ علىٰ جِنازةٍ ، فقُرِّبَتْ إليهِ بغلتُهُ ليركبَها ، فجاءَ ابنُ عباسٍ فأخذَ بركابِهِ ، فقالَ زيدٌ : خلِّ عنهُ يا بنَ عمِّ رسولِ اللهِ ، فقالَ ابنُ عباسٍ : هٰكذا أُمِرْنا أنْ نفعلَ بالعلماءِ والكبراءِ[1] ، فقبَّلَ زيدُ بنُ ثابتٍ يدَهُ وقالَ : هٰكذا أمِرْنا أنْ نفعلَ بأهلِ بيتِ نبيِّنا محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ مِنْ أخلاقِ المؤمنِ التملُّقُ إلا في طلبِ العلمِ »[3] .

فلا ينبغي للطالبِ أنْ يتكبَّرَ على المعلِّمِ ، ومِنْ تكبُّرِهِ على المعلِّمِ أنْ يستنكفَ مِنَ الاستفادةِ إلا مِنَ المرموقينَ المشهورينَ ، وهوَ عينُ الحماقةِ ؛ فإنَّ العلمَ سببُ النجاةِ والسعادةِ ، ومَنْ يطلبُ مهرباً مِنْ سبُعٍ ضارٍ يفترسُهُ . . لمْ يفرِّقْ بينَ أنْ يرشدَهُ إلى الهربِ مشهورٌ أوْ خاملٌ ، وضراوةُ سباعِ

---

(١) الكبراء هنا : ذوو الأسنان والشيوخ .

(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٨٣٢) بتمامه ، وأصله عند الطبراني في « الكبير » (٥/ ١٠٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٤٢٣) .

(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٨٥٩) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١٤٧٣) .

النارِ بالجهَّالِ باللهِ تعالىٰ أشدُّ مِنْ ضراوةِ كلِّ سبعٍ .

فالحكمةُ ضالَّةُ المؤمنِ ، يغتنمُها حيثُ يظفرُ بها ، ويتقلَّدُ المنَّةَ لمَنْ ساقَها إليهِ كائناً مَنْ كانَ ، ولذلكَ قيلَ : [من الكامل]

اَلْعِلْمُ حَرْبٌ لِلْفَتَى ٱلْمُتَعَالِي كَٱلسَّيْلِ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ ٱلْعَالِي[1]

فلا يُنالُ العلْمُ إلا بالتواضعِ وإلقاءِ السمعِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ، ومعنىٰ كونِهِ ذا قلبٍ : أنْ يكونَ قابلاً للعلمِ فَهِماً ، ثمَّ لا تغنيهِ القدرةُ على الفهْمِ حتَّىٰ يُلْقِيَ السمعَ وهوَ شهيدٌ حاضرُ القلبِ ، يستقبلُ كلَّ ما يُلقىٰ إليهِ بحسْنِ الإصغاءِ والضراعةِ والشكرِ والفرحِ وقبولِ المنَّةِ .

فليكنِ المتعلِّمُ لمعلِّمِهِ كأرضٍ دَمْثَةٍ[2] نالتْ مطراً غزيراً ، فشربتْ بجميعِ أجزائِها ، وأذعنتْ بالكلِّيَّةِ لقبولِهِ ، ومهما أشارَ عليهِ المعلِّمُ بطريقٍ في التعلُّمِ . . فليقلِّدْهُ وليدعْ رأيَهُ ؛ فإنَّ خطأَ مرشدِهِ أنفعُ لهُ مِنْ صوابِهِ في نفسِهِ ؛ إذِ التجربةُ تُطلِعُ علىٰ دقائقَ يُستغربُ سماعُها معَ أنَّهُ يعظُمُ نفعُها ، فكمْ مِنْ مريضٍ محرورٍ يعالجُهُ الطبيبُ في بعضِ أوقاتِهِ بالحرارةِ ؛ ليزيدَ في قوَّتِهِ إلىٰ حدٍّ يحتملُ صدمةَ العلاجِ ، فيتعجَّبُ منهُ مَنْ لا خبرةَ لهُ .

---

(١) انظر « التبيان » (ص٦٣) ، و« المجموع » (١/ ٦٢) ، و« نشر طي التعريف » (ص٢٤٥) .

(٢) **الدمثة** : الأرض السهلة المنخفضة .

وقدْ نبَّهَ اللهُ تعالىٰ بقصَّةِ الخضرِ وموسىٰ عليهما السلامُ حيثُ قالَ الخضرُ : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۞ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ ، ثمَّ شرطَ عليهِ السكوتَ والتسليمَ فقالَ : ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ ، ثمَّ لمْ يصبرْ ولمْ يزلْ في مرادَّتِهِ إلىٰ أنْ كانَ ذلكَ سببَ فراقِ ما بينَهما .

وبالجملةِ : كلُّ متعلِّمٍ استبقىٰ لنفسِهِ رأياً واختياراً وراءَ اختيارِ المعلِّمِ . . فاحكمْ عليهِ بالإخفاقِ والخسرانِ .

فإنْ قلتَ : فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، فالسؤالُ مأمورٌ بهِ .

فاعلمْ : أنَّهُ كذلكَ ، ولكنْ فيما يأذنُ المعلِّمُ في السؤالِ عنهُ ؛ فإنَّ السؤالَ عمَّا لمْ تبلغْ رتبتُكَ إلىٰ فهمِهِ مذمومٌ ، ولذلكَ منعَ الخضرُ موسىٰ عليهما السلامُ عنِ السؤالِ ؛ أي : دَعِ السؤالَ قبلَ أوانِهِ ، فالمعلِّمُ أعلمُ بما أنتَ أهلٌ لهُ ، وبأوانِ الكشْفِ ، وما لمْ يدخلْ أوانُ الكشفِ في كلِّ درجةٍ مِنْ مراقي الدرجاتِ . . لا يدخلُ أوانُ السؤالِ عنهُ .

وقدْ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ مِنْ حقِّ العالمِ : ألا تكثرَ عليهِ بالسؤالِ ، ولا تعنِّتَهُ في الجوابِ ، ولا تلحَّ عليهِ إذا كسلَ ، ولا تأخذَ بثوبِهِ إذا نهضَ ، ولا تفشيَ لهُ سرّاً ، ولا تغتابَنَّ عندَهُ أحداً ، ولا تطلبَنَّ عَثْرتَهُ ،

وإنْ زلَّ . . قبلتَ معذرتَهُ ، وعليكَ أنْ توقِّرَهُ وتعظِّمَهُ للهِ تعالىٰ ما دامَ يحفظُ أمرَ اللهِ تعالىٰ ، ولا تجلسْ أمامَهُ ، وإنْ كانتْ لهُ حاجةٌ . . سبقْتَ القومَ إلىٰ خدمتِهِ)[1] .

الوظيفةُ الرابعةُ : أنْ يحترزَ الخائضُ في العلمِ في مبدأِ الأمرِ عنِ الإصغاءِ إلى اختلافِ الناسِ ، سواءٌ كانَ ما خاضَ فيهِ مِنْ علومِ الدنيا أوْ مِنْ علومِ الآخرةِ :

فإنَّ ذلكَ يدهشُ عقلَهُ ويحيِّرُ ذهنَهُ ، ويفتِّرُ رأيَهُ ويؤيسُهُ عنِ الإدراكِ والاطلاعِ ، بلْ ينبغي أنْ يتقنَ أولاً الطريقةَ الحميدةَ الواحدةَ المرضيةَ عندَ أستاذِهِ ، ثمَّ بعدَ ذلكَ يصغي إلى المذاهبِ والشُّبَهِ .

وإنْ لمْ يكنْ أستاذُهُ مستقلاً باختيارِ رأيٍ واحدٍ وإنَّما عادتُهُ نقلُ المذاهبِ وما قيلَ فيها . . فليحذرْ منهُ ؛ فإنَّ إضلالَهُ أكثرُ مِنْ إرشادِهِ ، ولا يصلحُ الأعمىٰ لقودِ العميانِ وإرشادِهِمْ ، ومَنْ هـٰذا حالُهُ فهوَ بعدُ في عمى الحَيْرةِ وتيهِ الجهلِ .

ومنعُ المبتدىءِ عَنِ الشبهِ يضاهي منعَ الحديثِ العهدِ بالإسلامِ عنْ مخالطةِ الكفارِ ، وندبُ القويِّ إلى النظرِ في الاختلافاتِ يضاهي حثَّ القويِّ

---

(١) الفقيه والمتفقه (٨٥٦) بنحوه .

علىٰ مخالطةِ الكفارِ ، ولذلكَ يُمنعُ العاجزُ عنِ التهجُّمِ علىٰ صفِّ الكفارِ ، ويندبُ الشجاعُ لهُ .

ومِنَ الغفلةِ عنْ هـٰذهِ الدقيقةِ ظنَّ بعضُ الضعفاءِ أنَّ الاقتداءَ بالأقوياءِ فيما يُنقلُ عنهُمْ مِنَ المساهلاتِ جائزٌ ، ولمْ يدركْ أنَّ وظائفَ الأقوياءِ تخالفُ وظائفَ الضعفاءِ ، ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ : (مَنْ رآني في البدايةِ . . صارَ صدِّيقاً ، ومَنْ رآني في النهايةِ . . صارَ زنديقاً)[1] ؛ إذِ النهايةُ تردُّ الأعمالَ إلى الباطنِ ، وتسكِّنُ الجوارحَ إلا عنْ رواتبِ الفرائضِ ، فيتراءىٰ إلى الناظرِ أنَّهُ بطالةٌ وكسلٌ وإهمالٌ ، وهيهاتَ هيهاتَ ! فذلكَ مرابطةٌ للقلبِ في عينِ الشهودِ والحضورِ ، وملازمةٌ للذكرِ الذي هوَ أفضلُ الأعمالِ على الدوامِ .

وتشبُّهُ الضعيفِ بالقويِّ فيما يَرَىٰ مِنْ ظاهرِهِ أنَّهُ هفوةٌ يضاهي اعتذارَ مَنْ يُلقي نجاسةً يسيرةً في كوزِ ماءٍ ويتعلَّلُ بأنَّ أضعافَ هـٰذهِ النجاسةِ قدْ يُلقىٰ في البحرِ والبحرُ أعظمُ مِنَ الكوزِ ، فما جازَ للبحرِ . . فهوَ للكوزِ أجوزُ ، ولا يدري المسكينُ أنَّ البحرَ بقوَّتِهِ يحيلُ النجاسةَ ماءً ، فتنقلبُ عينُ النجاسةِ باستيلائِهِ إلىٰ صفتِهِ ، والقليلُ منَ النجاسةِ يغلبُ الكوزَ ويحيلُهُ إلىٰ صفتِهِ .

وبمثلِ هـٰذا جُوِّزَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما لمْ يُجوَّزْ لغيرِهِ ؛ حتَّىٰ أُبيحَ لهُ تِسْعُ نِسوةٍ[2] ؛ إذْ كانَ لهُ منَ القوَّةِ ما يتعدَّىٰ منهُ صفةُ العدلِ إلىٰ نسائِهِ

---

(١) ميزان العمل (ص٣٤٧) .

(٢) كما روى البخاري (٢٦٨) ، ولفظ (تسع نسوة) من رواية سعيد عن قتادة عن أنس عنده ، وفيه كذلك رواية (إحدىٰ عشرة) .

وإنْ كثرْنَ ، وأمَّا غيرُهُ . . فلا يقدرُ على بعضِ العدْلِ ، بلْ يتعدَّىٰ ما بينَهُنَّ مِنَ الضرارِ إليهِ ، حتَّىٰ ينجرَّ إلىٰ معصيةِ اللهِ تعالىٰ في طلبِ رضاهنَّ ، فما أفلحَ مَنْ قاسَ الملائكةَ بالحدَّادينَ .

الوظيفةُ الخامسةُ : ألا يدعَ طالبُ العلومِ فنّاً مِنَ العلومِ المحمودةِ ولا نوعاً مِنْ أنواعِها إلا وينظرُ فيهِ نظراً يطلعُ بهِ علىٰ مقصدِهِ وغايتِهِ :

ثمَّ إنْ ساعدَهُ العُمُرُ . . طلبَ التبحُّرَ فيهِ، وإلا . . اشتغلَ بالأهمِّ منهُ واستوفاهُ ، وتطرَّفَ مِنَ البقيةِ[1] ؛ فإنَّ العلومَ متعاونةٌ ، وبعضَها مرتبطٌ بالبعضِ .

ويستفيدُ منهُ في الحالِ الانفكاكَ عنْ عداوةِ ذلكَ العلمِ بسببِ جهلِهِ ؛ فإنَّ الناسَ أعداءُ ما جهلوا ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ .

وقالَ الشاعرُ[2] : [من الوافر]

وَمَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِدْ مُرّاً بِهِ ٱلْمَاءَ ٱلزُّلالا

فالعلومُ علىٰ درجاتِها : إمَّا سالكةٌ بالعبدِ إلى اللهِ تعالىٰ ، أوْ معينةٌ على السلوكِ نوعاً مِنَ الإعانةِ ، ولها منازلُ مرتَّبةٌ في القربِ والبعدِ مِنَ المقصودِ ، والقُوَّامُ بها حفظةٌ كحفّاظِ الرباطاتِ والثغورِ ، ولكلٍّ واحدٍ رتبةٌ ، ولهُ

---

(١) أي : أخذ منها الطرف والنوادر المحتاج إليها في حال طلبه . « إتحاف » (١/ ٣٢١) .
(٢) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/ ٢٢٨) .

بحسَبِ درجتِهِ أجرٌ في الآخرةِ إذا قصدَ بهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ .

الوظيفةُ السادسةُ : إنَّ العمرَ إذا كانَ لا يتسعُ لجميعِ العلومِ غالباً . . فالحزمُ أنْ يأخذَ مِنْ كلِّ شيءٍ أحسنَهُ :

ويكتفيَ منهُ بشمَّةٍ ، ويصرفَ جِمامَ قوَّتِهِ في الميسورِ مِنْ علمِهِ إلى استكمالِ العلمِ الذي هوَ أشرفُ العلومِ وهوَ علمُ الآخرةِ ؛ أعني : قسمي المعاملةِ والمكاشفةِ ، فغايةُ المعاملةِ المكاشفةُ ، وغايةُ المكاشفةِ معرفةُ اللهِ عزَّ وجلَّ .

ولستُ أعني بهِ الاعتقادَ الذي تلقَّنَهُ العاميُّ وراثةً أوْ تلقُّفاً ، ولا طريقَ تحريرِ الكلامِ والمجادلةِ في تحصينِ ذلكَ عنْ مراوغاتِ الخصومِ كما هوَ غايةُ المتكلِّمِ ، بلِ الذي أعنيهِ نوعُ يقينٍ هوَ ثمرةُ نورٍ يقذفُهُ اللهُ تعالىٰ في قلبِ عبدٍ طهَّرَ بالمجاهدةِ باطنَهُ عنِ الخبائثِ حتىٰ ينتهي إلىٰ رتبةِ إيمانِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ الذي لوْ وُزِنَ بإيمانِ العالمينَ . . لرجحَ ، كما شهدَ لهُ بهِ سيِّدُ البشرِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] ، فما عندي[2] أنَّ ما يعتقدُهُ العاميُّ ويرتِّبُهُ المتكلِّمُ الذي لا يزيدُ على العاميِّ إلا في صنعةِ الكلامِ ولأجلِهِ سمِّيتْ صناعتُهُ كلاماً . . كانَ يعجَزُ عنهُ عمرُ وعثمانُ وعليٌّ وسائرُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، حتَّىٰ كانَ يفضُلُهُمْ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ بالسرِّ الذي وَقَرَ في صدرِهِ .

---

(١) رواه مرفوعاً ابن عدي في « الكامل » (٤/ ٢٠١) ، والبيهقي موقوفاً علىٰ عمر رضي الله عنه في « الشعب » (٣٥) .

(٢) (ما) هنا نافية ؛ أي : ليس عندي .

والعجَبُ ممَّنْ يسمعُ مثلَ هـٰذهِ الأقوالِ مِنْ صاحبِ الشرعِ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ ثمَّ يزدري ما يسمعُهُ علىٰ وَفْقِهِ ، ويزعمُ أنَّهُ مِنْ ترَّهاتِ الصوفيةِ ، وأنَّ ذلكَ غيرُ معقولٍ .

فينبغي أنْ تتئِدَ في هـٰذا ، فعندَهُ ضيَّعْتَ رأسَ المالِ ، وكنْ حريصاً علىٰ معرفةِ ذلكَ السرِّ الخارجِ عنْ بضاعةِ الفقهاءِ والمتكلمينَ ، فلا يرشدُكَ إليهِ إلا حرصُكَ في الطلبِ .

وعلى الجملةِ : فأشرفُ العلومِ وغايتُها معرفةُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهيَ بحرٌ لا يُدركُ منتهىٰ غورِهِ ، وأقصىٰ درجاتِ البشرِ فيهِ رتبةُ الأنبياءِ ، ثمَّ الأولياءِ ، ثمَّ الذين يلونَهُمْ .

وقد رُوِيَ أنَّهُ رُئِيَ صورةُ حَكِيمينِ مِنَ الحكماءِ المتقدمينَ في مسجدٍ وفي يدِ أحدِهما رقعةٌ فيها : (إنْ أحسنْتَ كلَّ شيءٍ . . فلا تظنَّنَّ أنَّكَ أحسنْتَ شيئاً حتَّىٰ تعرفَ اللهَ تعالىٰ وتعلمَ أنَّه مسببُ الأسبابِ وموجدُ الأشياءِ) ، وفي يدِ الآخرِ : (كنتُ قبلَ أنْ أعرفَ اللهَ سبحانَهُ أشربُ وأظمأُ ، حتَّىٰ إذا عرفتُهُ . . رَوِيتُ بلا شرْبٍ) .

الوظيفةُ السابعةُ : ألا يخوضَ في فنونِ العلمِ دفعةً ، بلْ يراعي الترتيبَ ، فيبدأُ بالأهمِّ فالأهمِّ ، ولا يخوضُ في فنٍّ حتَّىٰ يستوفيَ الفنَّ الذي قبلَهُ :

فإنَّ العلومَ مرتبةٌ ترتيباً ضرورياً ، وبعضُها طريقٌ إلىٰ بعضٍ ، والموفَّقُ

مراعي ذلكَ الترتيبِ والتدريجِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ أيْ : لا يجاوزونَ فنّاً حتَّىٰ يحكموهُ علماً وعملاً .

وليكنْ قصدُهُ مِنْ كلِّ علمٍ يتحرَّاهُ الترقيَ إلىٰ ما فوقَهُ ، وينبغي ألا تحكمَ علىٰ علمٍ بالفسادِ لوقوعِ الاختلافِ بينَ أصحابِهِ فيهِ ، ولا بخطأِ واحدٍ أو آحادٍ فيهِ ، ولا بمخالفتِهِمْ موجَبَ العلمِ بالعملِ ، فترىٰ جماعةً تركوا النظرَ في العقليَّاتِ والفقهيَّاتِ متعلِّلينَ فيها بأنَّها لوْ كانَ لها أصلٌ . . لأدركَها أربابُها ، وقدْ مضىٰ كشفُ هـٰذِهِ الشبهِ في كتابِنا « مِعيارُ العلمِ » ، وترىٰ طائفةً يعتقدونَ بطلانَ الطبِّ لخطأٍ شاهدوه من طبيبٍ .

وطائفةً اعتقدوا صحَّةَ النجومِ لصوابٍ اتفقَ لواحدٍ ، وطائفةً اعتقدوا بطلانَهُ لخطأٍ اتفقَ لواحدٍ ، والكلُّ خطأٌ ، بلْ ينبغي أنْ يعرفَ الشيءَ في نفسِهِ ، فلا كلُّ علمٍ يستقلُّ بهِ كلُّ شخصٍ ، ولذلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (لا تعرفِ الحقَّ بالرجالِ ، اعرفِ الحقَّ . . تعرفْ أهلَهُ) .

الوظيفةُ الثامنةُ : أنْ يعرفَ السببَ الذي بهِ يُدركُ شرفُ العلومِ ، وأنَّ ذلكَ يُرادُ بهِ شيئانِ :

أحدُهما : شرفُ الثمرةِ .

والثاني : وثاقةُ الدليلِ وقوَّتُهُ .

وذلكَ كعلْمِ الدينِ وعلْمِ الطبِّ ؛ فإنَّ ثمرةَ أحدِهما الحياةُ الأبديةُ ،

وثمرةَ الآخرِ الحياةُ الفانيةُ ، فيكونُ علمُ الدينِ أشرفَ .

ومثلُ علمِ الحسابِ وعلمِ النجومِ ؛ فإنَّ علمَ الحسابِ أشرفُ ؛ لوثاقةِ أدلتِهِ وقوَّتِها .

وإذا نُسبَ الحسابُ إلى الطبِّ . . كانَ الطبُّ أشرفَ باعتبارِ ثمرتِهِ ، والحسابُ أشرفَ باعتبارِ أدلَّتِهِ ، وملاحظةُ الثمرةِ أولىٰ ، ولذلكَ كانَ الطبُّ أشرفَ وإنْ كانَ أكثرُهُ بالتخمينِ .

وبهـٰذا يتبينُ أنَّ أشرفَ العلومِ العلمُ باللهِ عزَّ وجلَّ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ ، والعلمُ بالطريقِ الموصلِ إلىٰ هـٰذهِ العلومِ ، فإيَّاكَ وأنْ ترغبَ إلا فيهِ ، وأنْ تحرصَ إلا عليهِ .

الوظيفةُ التاسعةُ : أنْ يكونَ قصدُ المتعلِّمِ في الحالِ تحليةَ باطنِهِ وتجميلَهُ بالفضيلةِ ، وفي المآلِ القربَ مِنَ اللهِ سبحانَهُ والترقِّيَ إلىٰ جوارِ الملإِ الأعلىٰ مِنَ الملائكةِ والمقرَّبينَ :

ولا يقصدُ بهِ الرئاسةَ والمالَ والجاهَ ومماراةَ السفهاءِ ومباهاةَ الأقرانِ ، وإذا كانَ هـٰذا[1] مقصدَهُ . . طلبَ ـ لا محالةَ ـ الأقربَ إلىٰ مقصودِهِ ، وهوَ علمُ الآخرةِ ، ومعَ هـٰذا فلا ينبغي له أنْ ينظرَ بعينِ الحقارةِ إلىٰ سائرِ العلومِ ؛ أعني : علمَ الفتاوىٰ ، وعلمَ النحوِ واللغةِ المتعلِّقَينِ بالكتابِ والسنةِ ، وغيرَ

(١) يعني : الوصول إلى الله تعالىٰ . « إتحاف » (١/ ٣٢٦) .

ذلكَ ممَّا أوردناهُ في المقدِّماتِ والمتمِّماتِ منْ ضروبِ العلومِ التي هيَ فرضُ كفايةٍ .

ولا تفهمَنَّ مِنْ غلوِّنا في الثناءِ علىٰ علمِ الآخرةِ تهجينَ هـٰذهِ العلومِ ؛ فالمتكفِّلونَ بالعلومِ كالمتكفِّلينَ بالثغورِ والمرابطينَ بها ، والغزاةِ المجاهدينَ في سبيلِ اللهِ ؛ فمنهُمُ المقاتلُ ، ومنهُمُ الرِّدْءُ ، ومنهُمُ الذي يسقيهِمُ الماءَ ، ومنهُمُ الذي يحفظُ دوابَّهُمْ ويتعهَّدُها ، ولا ينفكُّ واحدٌ منهُمْ عنْ أجرٍ إذا كانَ قصدُهُ إعلاءَ كلمةِ اللهِ تعالىٰ دونَ حيازةِ الغنائمِ ، فكذلكَ العلماءُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ .

والفضيلةُ نسبيَّةٌ ، واستحقارُنا للصيارفةِ عندَ قياسِهِمْ بالملوكِ لا يدلُّ علىٰ حقارتِهِمْ إذا قيسوا بالكنَّاسينَ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ ما نزلَ عنِ الرتبةِ القصوىٰ ساقطُ القدْرِ ، بلِ الرتبةُ العليا للأنبياءِ ، ثمَّ الأولياءِ ، ثمَّ العلماءِ الراسخينَ في العلمِ ، ثم للصالحينَ علىٰ تفاوتِ درجاتِهِمْ .

وبالجملةِ : مَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً . . يَرهُ ، ومَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ شراً . . يَرهُ ، ومَنْ قصدَ اللهَ تعالىٰ بالعلمِ أيَّ علمٍ كانَ . . نفعَهُ ورفعَهُ لا محالةَ .

الوظيفةُ العاشرةُ : أنْ يعلمَ نسبةَ العلومِ إلى المقصدِ :

كيما يؤْثرَ الرفيعَ القريبَ على البعيدِ ، والمهمَّ علىٰ غيرِهِ ، ومعنى المهمِّ : ما يهمُّكَ ، ولا يهمُّكَ إلا شأنُكَ في الدنيا والآخرةِ ، وإذا لم يمكنِ الجمعُ بينَ ملاذِ الدنيا ونعيمِ الآخرةِ كما نطقَ بهِ القرآنُ وشهدَ لهُ مِنْ نورِ البصائرِ ما يجري مَجرى العيانِ . . فالأهمُّ ما يبقىٰ أبدَ الآبادِ ؛ وعندَ ذلكَ تصيرُ الدنيا منزلاً ، والبدنُ مركباً ، والأعمالُ سعياً إلى المقصدِ ، ولا مقصدَ إلا لقاءُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ففيهِ النعيمُ كلُّهُ ، وإنْ كانَ لا يَعرفُ في هٰذا العالَمِ قدرَهُ إلا الأقلُّونَ .

والعلومُ بالإضافةِ إلىٰ سعادةِ لقاءِ اللهِ تعالىٰ والنظرِ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ ـ أعني النظرَ الذي طلبَهُ الأنبياءُ وفهموهُ ، دونَ ما يسبقُ إلىٰ فهْمِ العوامِّ والمتكلمينَ ـ علىٰ ثلاثِ مراتبَ ، تفهمُها بالموازنةِ بمثالٍ :

وهوَ أنَّ العبدَ الذي عُلِّقَ عتقُهُ وتمكينُهُ منَ المُلْكِ بالحجِّ ، وقيلَ لهُ : إنْ حججْتَ وأتممتَ . . وصلتَ إلى العتْقِ والمُلْكِ جميعاً ، وإنِ ابتدأتَ بطريقِ الحجِّ والاستعدادِ لهُ وعاقَكَ في الطريقِ مانعٌ ضروريٌّ . . فلكَ العتْقُ والخلاصُ منْ شقاءِ الرقِّ فقطْ دونَ سعادةِ المُلْكِ . . فلهُ ثلاثةُ أصنافٍ مِنَ الشغلِ :

الأوَّلُ : تهيئةُ الأسبابِ بشراءِ الناقةِ وخرْزِ الراويةِ وإعدادِ الزادِ والراحلةِ .

والثاني : السلوكُ ومفارقةُ الوطنِ بالتوجُّهِ إلى الكعبةِ منزلاً بعدَ منزلٍ .

والثالثُ : الاشتغالُ بأعمالِ الحجِّ ركناً بعدَ ركنٍ .

ثمَّ بعدَ الفراغِ والنزوعِ عنْ هيئةِ الإحرامِ وطوافِ الوداعِ . . استحَقَّ التعرُّضَ للمُلْكِ والسلطنةِ ، ولهُ في كلِّ مقامٍ منازلُ ، مِنْ أوَّلِ إعدادِ الأسبابِ إلىٰ آخرِهِ ، ومِنْ أوَّلِ سلوكِ البوادي إلىٰ آخرِهِ ، ومِنْ أوَّلِ أركانِ الحجِّ إلىٰ آخرِهِ ، وليسَ قرْبُ مَنِ ابتدأَ بأركانِ الحجِّ مِنَ السعادةِ كقرْبِ مَنْ هوَ بعدُ في إعدادِ الزادِ والراحلةِ ، ولا كقربِ مَنِ ابتدأَ بالسلوكِ ، بلْ هوَ أقربُ منهُ .

فالعلومُ أيضاً ثلاثةُ أقسامٍ :

قسمٌ يجري مَجرىٰ إعدادِ الزادِ والراحلةِ وشراءِ الناقةِ : وهوَ علْمُ الطبِّ والفقهِ وما يتعلَّقُ بمصالحِ البدنِ في الدنيا .

وقسمٌ يجري مَجرىٰ سلوكِ البوادي وقطعِ العقباتِ : وهوَ تطهيرُ الباطنِ عنْ كدوراتِ الصفاتِ ، وطلوعُ تلكَ العقباتِ الشامخةِ التي عجَزَ عنها الأوَّلونَ والآخرونَ إلا الموفقينَ ، فهـٰذا سلوكُ الطريقِ ، وتحصيلُ علمِهِ كتحصيلِ علْمِ جهاتِ الطريقِ ومنازلِهِ ، وكما لا يغني علْمُ المنازلِ وطرقِ البوادي دونَ سلوكِها . . كذلكَ لا يغني علمُ تهذيبِ الأخلاقِ دونَ مباشرةِ التهذيبِ ، ولكنَّ المباشرةَ دونَ العلمِ غيرُ ممكنٍ .

وقسمٌ ثالثٌ يجري مَجرىٰ نفْسِ الحجِّ وأركانِهِ : وهوَ العلمُ باللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وملائكتِهِ وأفعالِهِ وجميعِ ما ذكرناهُ في تراجمِ علمِ المكاشفةِ .

وهـٰهنا نجاةٌ وفوزٌ بالسعادةِ ، والنجاةُ حاصلةٌ لكلِّ سالكٍ للطريقِ إذا كانَ غرضُهُ المقصدَ الحقَّ وهوَ السلامةُ .

وأمَّا الفوزُ بالسعادةِ . . فلا ينالُهُ إلا العارفونَ باللهِ تعالىٰ ، فهمُ المقربونَ المنعَّمونَ في جوارِ اللهِ بالرَّوْحِ والريحانِ وجنَّةِ النعيمِ .

وأمَّا الممنوعونَ دونَ ذُروةِ الكمالِ . . فلهُمُ النجاةُ والسلامةُ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۞ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۞ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۞ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ .

وكلُّ مَنْ لمْ يتوجَّهْ إلى المقصدِ ، ولمْ ينتهضْ لهُ ، أوِ انتهضَ إلىٰ جهتِهِ لا علىٰ قصدِ الامتثالِ والعبوديةِ ، بلْ لغرضٍ عاجلٍ . . فهوَ منْ أصحابِ الشمالِ ومنَ الضالينَ ، فلهُ نُزُلٌ منْ حَميمٍ وتصليةُ جحيمٍ .

واعلمْ : أنَّ هـٰذا هوَ حقُّ اليقينِ عندَ العلماءِ الراسخينَ ؛ أعني أنهمْ أدركوهُ بمشاهدةٍ منَ الباطنِ هيَ أقوىٰ وأجلىٰ منْ مشاهدةِ الأبصارِ ، وترقَّوا فيهِ عنْ حدِّ التقليدِ بمجرَّدِ السماعِ ، وحالُهُمْ حالُ منْ أُخبرَ فصدَّقَ ، ثمَّ شاهدَ فتحقَّقَ ، وحالُ غيرِهِمْ حالُ مَنْ قَبِلَ بحسْنِ التصديقِ والإيمانِ ، ولمْ يحظَ بالمشاهدةِ والعِيانِ .

فالسعادةُ وراءَ علْمِ المكاشفةِ ، وعلْمُ المكاشفةِ وراءَ علمِ المعاملةِ التي هيَ سلوكُ طريقِ الآخرةِ ، وقطعُ عقباتِ الصفاتِ ، وسلوكُ طريقِ محوِ الصفاتِ المذمومةِ وراءَ علْمِ الصفاتِ ، وعلْمِ طريقِ المعالجةِ وكيفيةِ السلوكِ ، وذلكَ

وراءَ علْمِ سلامةِ البدنِ ومساعدةِ أسبابِ الصحةِ ، وسلامةُ البدنِ بالاجتماعِ والتظاهرِ والتعاونِ الذي يُتوصَّلُ بهِ إلى الملبسِ والمطعمِ والمسكنِ ، وهوَ منوطٌ بالسلطانِ وقانونِهِ في ضبْطِ الناسِ علىٰ نهْجِ العدلِ والسياسةِ في ناصيةِ الفقيهِ .

وأمَّا أسبابُ الصحةِ . . ففي ناصيةِ الطبيبِ ، ومَنْ قالَ : (العلمُ علمانِ : علمُ الأبدانِ ، وعلمُ الأديانِ) وأشارَ بهِ إلى الفقهِ . . أرادَ بهِ العلومَ الظاهرةَ الشائعةَ ، لا العلومَ العزيزةَ الباطنةَ[1] .

فإنْ قلتَ : لِمَ شبهتَ علمَ الفقهِ والطبِّ بإعدادِ الزادِ والراحلةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ الساعيَ إلى اللهِ تعالىٰ لينالَ قربَهُ هوَ القلبُ دونَ البدنِ ، ولستُ أعني بالقلبِ اللحْمَ المحسوسَ ، بلْ هوَ سرٌّ مِنْ أسرارِ اللهِ عزَّ وجلَّ لا يدركُهُ الحسُّ ، ولطيفةٌ منْ لطائِفِهِ تارةً يُعبَّرُ عنهُ بالروحِ ، وتارةً بالنفسِ المطمئنةِ ، والشرعُ يعبِّرُ عنهُ بالقلبِ ؛ لأنَّهُ المطيةُ الأولىٰ لذلكَ السرِّ ، وبواسطتِهِ صارَ جميعُ البدنِ مطيةً وآلةً لتلكَ اللطيفةِ .

وكشفُ الغطاءِ عَنْ ذلكَ السرِّ مِنْ علْمِ المكاشفةِ ، وهوَ مضنونٌ بهِ ، بلْ لا رخصةَ في ذكرِهِ ، وغايةُ المأذونِ فيهِ أنْ يقالَ : هوَ جوهرٌ نفيسٌ ودرٌّ عزيزٌ أشرفُ مِنْ هـٰذهِ الأجرامِ المرئيةِ ، وإنَّما هوَ أمْرٌ إلـٰهيٌّ ؛ كما قالَ تعالىٰ :

---

(١) والقول للإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ ، كما في « حلية الأولياء » (٩/ ١٤٢) .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ .

وكلُّ المخلوقاتِ منسوبةٌ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولكنَّ نسبتَهُ أشرفُ مِنْ نسبةِ سائرِ أعضاءِ البدنِ ، فللّٰهِ الخلْقُ والأمْرُ جميعاً ، والأمرُ أعلىٰ مِنَ الخلْقِ ، وهـٰذهِ الجوهرةُ النفيسةُ الحاملةُ لأمانةِ اللهِ تعالى المتقدمةُ بهـٰذهِ الرتبةِ على السماواتِ والأرضينَ والجبالِ إذْ أبَيْنَ أنْ يحملْنَها وأشفقْنَ منها . . هيَ مِنْ عالَمِ الأمرِ .

ولا تفهمْ مِنْ هـٰذا تعريضاً بقِدَمِهِ ، فالقائلُ بقِدَمِ الأرواحِ مغرورٌ جاهلٌ لا يدري ما يقولُ[1] .

فلنقبضْ عِنانَ البيانِ عنْ هـٰذا الفنِّ ، فهوَ وراءَ ما نحنُ بصددِهِ .

والمقصودُ : أنَّ هـٰذهِ اللطيفةَ هيَ الساعيةُ إلىٰ قرْبِ الربِّ ؛ لأنَّها مِنْ أمْرِ الربِّ ، فمنهُ مصدرُها ، وإليهِ مرجعُها ، وأمَّا البدنُ . . فمطيَّتُها التي تركبُها وتسعىٰ بواسطتِها ، فالبدنُ لها في طريقِ اللهِ تعالىٰ كالناقةِ للبدنِ في طريقِ الحجِّ ، وكالراويةِ الحاويةِ للماءِ الذي يفتقرُ إليهِ البدنُ .

فكلُّ علْمٍ مقصدُهُ مصلحةُ البدنِ . . فهوَ مِنْ جملةِ مصالحِ المطيَّةِ ، ولا يخفَىٰ أنَّ الطبَّ كذلكَ ؛ فإنَّه قدْ يُحتاجُ إليهِ في حفْظِ الصحةِ على البدنِ ، ولوْ كانَ الإنسانُ وحدَهُ . . لاحتاجَ إليهِ ، والفقهُ يفارقُهُ في أنَّهُ لوْ كانَ

---

(١) كالفلاسفة ومن علىٰ قدمهم . « إتحاف » (١/ ٣٣٢) .

الإنسانُ وحدَهُ . . ربَّما كانَ يستغني عنهُ ، ولكنَّهُ خُلِقَ علىٰ وجهٍ لا يمكنُهُ أنْ يعيشَ وحدَهُ ، إذْ لا يستقلُّ بالسعيِ في تحصيلِ طعامِهِ بالحراثةِ والزرْعِ والخبزِ والطبخِ ، وفي تحصيلِ الملبسِ والمسكنِ ، وفي إعدادِ آلاتِ ذلكَ كلِّهِ ، فاضطرَّ إلى المخالطةِ والاستعانةِ .

ومهما اختلطَ الناسُ وثارَتْ شهواتُهُمْ . . تجاذبوا أسبابَ الشهواتِ ، وتنازعوا وتقاتلوا ، وحصلَ مِنْ قتالِهِمْ هلاكُهُمْ بسببِ التنافسِ مِنْ خارجٍ ، كما يحصلُ هلاكُهُمْ بسببِ تضادِّ الأخلاطِ مِنْ داخلٍ ، وبالطبِّ يُحفظُ الاعتدالُ في الأخلاطِ المتنازعةِ مِنْ داخلٍ ، وبالسياسةِ والعدْلِ يُحفظُ الاعتدالُ في التنافسِ مِنْ خارجٍ ، وعلمُ طريقِ اعتدالِ الأخلاطِ طبٌّ ، وعلْمُ طريقِ اعتدالِ أحوالِ الناسِ في المعاملاتِ والأفعالِ فقْهٌ ، وكلُّ ذلكَ يحفظُ البدنَ الذي هوَ مطيةٌ .

فالمتجرِّدُ لعلْمِ الفقهِ أوِ الطبِّ إذا لمْ يجاهدْ نفسَهُ ولمْ يصلحْ قلبَهُ . . كالمتجرِّدِ لشراءِ الناقةِ وعلفِها وشراءِ الراويةِ وخرْزِها إذا لمْ يسلكْ باديةَ الحجِّ ، والمستغرقُ عمرَهُ في دقائقِ الكلماتِ التي تُحرَّرُ في مجادلاتِ الفقهِ . . كالمستغرقِ عمرَهُ في دقائقِ الأسبابِ التي بها تستحكمُ الخيوطُ التي تُخرزُ بها راويةُ الحجِّ .

ونسبةُ هؤلاءِ مِنَ السالكِ لطريقِ إصلاحِ القلبِ أوِ الواصلِ إلىٰ علْمِ المكاشفةِ . . كنسبةِ أولئكَ إلىٰ سالكي طريقِ الحجِّ أوْ مُلابسي أركانِهِ .

فتأملْ هـٰذا أولاً ، واقبلِ النصيحةَ مجَّاناً ممَّنْ قامَ عليهِ ذلكَ غالباً ولمْ يصلْ إليهِ إلا بعدَ جهْدٍ جهيدٍ ، وجَراءةٍ تامَّةٍ علىٰ مباينةِ الخلْقِ ؛ العامَّةِ والخاصَّةِ في النزوعِ مِنْ تقليدِهِمْ بمجرَّدِ الشهوةِ .

فهـٰذا القدْرُ كافٍ في وظائفِ المتعلِّمِ .



بيان وظائف المرشد المعلّم

اعلمْ : أنَّ للإنسانِ في علمِهِ أربعةَ أحوالٍ ، كما لهُ في اقتناءِ الأموالِ ؛ إذْ لصاحبِ المالِ حالُ استفادةٍ فيكونُ **مكتسباً** ، وحالُ ادخارٍ لما اكتسبَهُ فيكونُ بهِ **غنياً عنِ السؤالِ** ، وحالُ إنفاقٍ علىٰ نفسِهِ فيكونُ بهِ **منتفعاً** ، وحالُ بذْلٍ لغيرِهِ فيكونُ بهِ **سخيّاً متفضِّلاً** ، وهوَ أشرفُ أحوالِهِ .

فكذلكَ العلْمُ يقتنىٰ كالمالِ ، فلهُ حالُ طلبٍ واكتسابٍ ، وحالُ تحصيلٍ يغني عنِ السؤالِ ، وحالُ استبصارٍ وهو التفكُّرُ في المحصَّلِ والتمتُّعُ بهِ ، وحالُ تبصيرٍ وهوَ أشرفُ الأحوالِ .

فمَنْ علِمَ وعملَ وعلَّمَ فهوَ الذي يُدعَىٰ عظيماً في ملكوتِ السماءِ ؛ فإنَّهُ كالشمسِ تضيءُ لغيرِها وهيَ مضيئةٌ في نفسِها ، وكالمسكِ الذي يطيِّبُ غيرَهُ وهوَ طيِّبٌ .

والذي يعلِّمُ ولا يعملُ بهِ كالدفترِ الذي يفيدُ غيرَهُ وهوَ خالٍ عن العلْمِ ، وكالمِسَنِّ الذي يشحَذُ غيرَهُ ولا يقطعُ ، والإبرةِ التي تكسو غيرَها وهيَ عاريةٌ ، وذُبالةِ المصباحِ تضيءُ لغيرِها وهيَ تحترقُ ، كما قيلَ[1] : [من المنسرح]

صِرْتُ كَأَنِّي ذُبالَةٌ وُقِدَتْ ... تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَهْيَ تَحْتَرِقُ

(١) ديوان العباس بن الأحنف (ص٢٢١) .

ومهما اشتغلَ بالتعليمِ . . فقدْ تقلَّدَ أمراً عظيماً وخطراً جسيماً ، فليحفظْ آدابَهُ ووظائِفَهُ .

الوظيفةُ الأولىٰ : الشفقةُ على المتعلِّمينَ ، وأنْ يُجريَهُمْ مُجرىٰ بَنيهِ :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما أنا لكُمْ مثلُ الوالدِ لولدِهِ »[1] ، فإنَّ قصدَهُ إنقاذُهُمْ مِنْ نارِ الآخرةِ ، وهوَ أهمُّ مِنْ إنقاذِ الوالدينِ ولدَهما مِنْ نارِ الدنيا .

ولذلكَ صارَ حقُّ المعلِّمِ أعظمَ مِنْ حقِّ الوالدينِ ؛ فإنَّ الوالدَ سببُ الوجودِ الحاضرِ والحياةِ الفانيةِ ، والمعلِّمَ سببُ الحياةِ الباقيةِ ، ولولا المعلِّمُ . . لساقَ ما حصلَ منْ جهةِ الأبِ إلى الهلاكِ الدائمِ ، وإنَّما المعلِّمُ هوَ المفيدُ للحياةِ الأخرويةِ الدائمةِ ؛ أعني معلِّمَ علومِ الآخرةِ ، أوْ علومِ الدنيا علىٰ قصْدِ الآخرةِ لا علىٰ قصْدِ الدنيا ، فأمَّا التعليمُ علىٰ قصْدِ الدنيا . . فهوَ هلاكٌ وإهلاكٌ ، نعوذُ باللهِ منهُ .

وكما أنَّ حقَّ أبناءِ الرجلِ الواحدِ أنْ يتحابُّوا ويتعاونوا على المقاصدِ كلِّها . . فكذلكَ حقُّ تلامذةِ الرجلِ الواحدِ التحابُّ والتوادُّ ، ولا يكونُ إلا كذلكَ إنْ كانَ مقصدُهُمُ الآخرةَ ، ولا يكونُ إلا التحاسدُ والتباغضُ إنْ كانَ مقصدُهُمُ الدنيا .

---

(١) رواه أبو داوود (٨) ، والنسائي (١/ ٣٨) ، وابن ماجه (٣١٣) .

فإنَّ العلماءَ وأبناءَ الآخرةِ مسافرونَ إلى اللهِ تعالىٰ ، وسالكونَ إليهِ الطريقَ مِنَ الدنيا ، وسِنُوها وشهورُها منازلُ الطريقِ ، والترافقُ في الطريقِ بينَ المسافرينَ إلى الأمصارِ سببُ التوادِّ والتحابِّ ، فكيفَ السفرُ إلى الفردوسِ الأعلىٰ والترافقُ في طريقِهِ ؟!

ولا ضيقَ في سعاداتِ الآخرةِ ، فلذلكَ لا يكونُ بينَ أبناءِ الآخرةِ تنازعٌ ، ولا سَعةَ في سعاداتِ الدنيا ، فلذلكَ لا ينفكُّ عنْ ضيقِ التزاحمِ .

والعادلونَ إلىٰ طلبِ الرئاسةِ بالعلومِ خارجونَ عنْ موجَبِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، وداخلونَ في مقتضىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

الوظيفةُ الثانيةُ : أنْ يقتديَ بصاحبِ الشرعِ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ :

فلا يطلبُ علىٰ إفاضةِ العلْمِ أجراً ، ولا يقصدُ بهِ جزاءً ولا شكراً ، بلْ يعلِّمُ لوجْهِ اللهِ تعالىٰ ، وطلباً للتقرُّبِ إليهِ ، ولا يرىٰ لنفسِهِ منَّةً عليهِمْ وإنْ كانتِ المنَّةُ لازمةً عليهِمْ ، بلْ يرى الفضلَ لهُمْ ؛ إذ هَدَفوا قلوبَهُمْ لأنْ تتقرَّبَ إلى اللهِ بزراعةِ العلومِ فيها[1] ، كالذي يعيرُكَ الأرضَ لتزرعَ فيها لنفسِكَ زراعةً ، فمنفعتُكَ بها تزيدُ علىٰ منفعةِ صاحبِ الأرضِ ، فكيفَ تقلِّدُهُ منَّةً وثوابُكَ في التعليمِ أكثرُ مِنْ ثوابِ المتعلِّمِ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ولولا المتعلِّمُ . . ما نلتَ هـٰذا الثوابَ ؟!

---

(١) هدفوا هنا : رموا ، كأنهم ألقوها ابتغاء القرب منه سبحانه ، أو عرّضوها لذلك .

فلا تطلبِ الأجرَ إلا مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ ؛ فإنَّ المالَ وما في الدنيا خادمُ البدنِ ، والبدنُ مركبُ النفسِ ومطيَّتُها ، والمخدومُ هوَ العلْمُ ؛ إذْ بهِ شرفُ النفسِ ، فمَنْ طلبَ بالعلمِ المالَ . . كانَ كمنْ مسحَ أسفلَ مداسِهِ ونعلِهِ بمحاسِنِهِ لينظفَهُ[1] ، فجعلَ المخدومَ خادماً والخادمَ مخدوماً ، وذلكَ هوَ الانتكاسُ علىٰ أمِّ الراسِ ، ومثلُهُ هوَ الذي يقومُ في العرْضِ الأكبرِ معَ المجرمينَ ناكسي رؤوسِهِمْ عندَ ربِّهِمْ .

وعلى الجملةِ : فالفضلُ والمنَّةُ للمعلِّمِ .

فانظرْ كيفَ انتهىٰ أمرُ الدينِ إلىٰ قومٍ يزعمونَ أنَّ مقصودَهُمُ التقرُّبُ إلى اللهِ تعالىٰ بما همْ فيهِ مِنْ علْمِ الفقهِ والكلامِ والتدريسِ فيهما وفي غيرِهما ؛ فإنَّهُمْ يبذلونَ المالَ والجاهَ ، ويتحمَّلونَ أصنافَ الذلِّ في خدمةِ السلاطينِ لاستطلاقِ الجِراياتِ[2] ، ولوْ تركوا ذلكَ . . لتُركوا ولمْ يُختلَفْ إليهِمْ .

ثمَّ يتوقَّعُ المعلِّمُ مِنَ المتعلِّمِ أنْ يقومَ لهُ في كلِّ نائبةٍ ، وينصرَ وليَّهُ ، ويعاديَ عدوَّهُ ، وينتهضَ حماراً لهُ في حاجاتِهِ ، ومسخَّراً بينَ يديهِ في أوطارِهِ ، فإنْ قصَّرَ في حقِّهِ . . ثارَ عليهِ ، وصارَ مِنْ أعدىٰ أعدائِهِ ، فأخْسِسْ

---

(١) في (ج) : (كان كمن مسح أسفل نعله برِجْله من نجاسته لينظفه) ، وفي بعض نسخ الحافظ الزبيدي : (بوجهه) بدل (بمحاسنه) ، قال : (وإليه يعود معنى المحاسن) . « إتحاف » (١/ ٣٣٨) .

(٢) **الجراية** : ما يجري من الرواتب المعلومة على الإنسان من نقد وغلَّة وغير ذلك .

بعالمٍ يرضىٰ لنفسِهِ بهـٰذهِ المنزلةِ ثمَّ يفرحُ بها ، ثمَّ لا يستحيي مِنْ أنْ يقولَ : غرضي مِنَ التدريسِ نشرُ العلمِ تقرُّباً إلى اللهِ تعالىٰ ونصرةً لدينِهِ !

فانظرْ إلى الأماراتِ حتَّىٰ ترىٰ صنوفَ الاغتراراتِ .

الوظيفةُ الثالثةُ : ألا يدَّخرَ مِنْ نصْحِ المتعلِّمِ شيئاً :

وذلكَ بأنْ يمنعَهُ مِنَ التصدِّي لرتبةٍ قبلَ استحقاقِها ، والتشاغلِ بعلْمٍ خفيٍّ قبلَ الفراغِ مِنَ الجليِّ ، ثمَّ ينبهَهُ علىٰ أنَّ الغرضَ بطلبِ العلومِ القربُ مِنَ اللهِ تعالىٰ دونَ الرئاسةِ والمباهاةِ والمنافسةِ ، ويقدِّمَ تقبيحَ ذلكَ في نفسِهِ بأقصىٰ ما يمكنُ ، فليسَ ما يصلحُهُ العالمُ الفاجرُ بأكثرَ ممَّا يفسدُهُ .

فإنْ علِمَ مِنْ باطنِهِ أنَّهُ لا يطلبُ العلْمَ إلا للدنيا . . نظرَ إلى العلْمِ الذي يطلبُهُ ، فإنْ كانَ هوَ علمَ الخلافِ في الفقهِ ، والجدلِ في الكلامِ ، والفتاوىٰ في الخصوماتِ والأحكامِ . . فيمنعُهُ مِنْ ذلكَ ؛ فإنَّ هـٰذهِ العلومَ ليستْ مِنْ علومِ الآخرةِ ولا مِنَ العلومِ التي قيلَ فيها : (تعلَّمْنا العلمَ لغيرِ اللهِ ، فأبى العلمُ أنْ يكونَ إلا للهِ) ، وإنَّما ذلكَ علْمُ التفسيرِ وعلمُ الحديثِ ، وما كانَ الأولونَ يشتغلونَ بهِ مِنْ علْمِ الآخرةِ ، ومعرفةِ أخلاقِ النفسِ وكيفيةِ تهذيبِها ، فإذا تعلَّمَهُ الطالبُ وقصدُهُ الدنيا . . فلا بأسَ أنْ يتركَهُ ؛ فإنَّهُ يتشمَّرُ لهُ طمعاً في الوعْظِ والاستتباعِ ، ولكنْ قد يتنبَّهُ في أثناءِ الأمرِ أوْ آخرِهِ ؛ إذْ فيهِ العلومُ المخوَّفةُ مِنَ اللهِ تعالىٰ المحقِّرةُ للدنيا المعظِّمةُ للآخرةِ ، وذلكَ يوشِكُ أنْ يردَّ إلى الصوابِ في الآخرةِ حتَّىٰ يتعظَ بما يعظُ بهِ غيرَهُ ، ويجري حُبُّ القبولِ

والجاهِ مَجرى الحَبِّ الذي يُنثرُ حوالَي الفخِّ ليُقتنصَ بهِ الطيرُ ، وقدْ فعلَ اللهُ ذلكَ بعبادِهِ ، إذْ خلقَ الشهوةَ ليصلَ الخلقُ بها إلىٰ بقاءِ النسلِ ، وخلقَ أيضاً حُبَّ الجاهِ ليكونَ سبباً لإحياءِ العلومِ ، وهـٰذا متوقَّعٌ في هـٰذهِ العلومِ .

فأمَّا الخلافُ المحضُ ومجادلةُ الكلامِ ومعرفةُ التفريعاتِ الغريبةِ . . فلا يزيدُ التجرُّدُ لها معَ الإعراضِ عنْ غيرِها إلا قسوةً في القلبِ ، وغفلةً عنِ اللهِ تعالىٰ ، وتمادياً في الضلالِ ، وطلباً للجاهِ ، إلا مَنْ تداركَهُ اللهُ تعالىٰ برحمتِهِ ، أوْ مزجَ بهِ غيرَهُ منَ العلومِ الدينيةِ ، ولا برهانَ علىٰ هـٰذا كالتجربةِ والمشاهدةِ .

فانظرْ واعتبرْ ، واستبصرْ لتشاهدَ تحقيقَ ذلكَ في العبادِ والبلادِ ، واللهُ المستعانُ .

وقدْ رُئِيَ سفيانُ الثوريُّ رحمهُ اللهُ حزيناً ، فقيلَ لهُ : ما لكَ ؟ فقالَ : صرْنا مَتْجراً لأبناءِ الدنيا ، يلزَمُنا أحدُهُمْ ، حتَّىٰ إذا تعلَّمَ . . جُعِلَ عاملاً أوْ قاضياً أوْ قَهْرَماناً[1] .

الوظيفةُ الرابعةُ وهيَ مِنْ دقائقِ صناعةِ التعليمِ : أنْ يزجرَ المتعلِّمَ عنْ سوءِ الأخلاقِ بطريقِ التعريضِ ما أمكنَ :

ولا يصرِّحَ ، وبطريقِ الرحمةِ لا بطريقِ التوبيخِ ؛ فإنَّ التصريحَ يهتكُ

(١) قوت القلوب (١/ ١٣٣) ، **والقهرمان** : المسيطر الحفيظ علىٰ من تحت يديه ، لفظة فارسية معربة .

حجابَ الهيبةِ ، ويورثُ الجرأةَ على الهجومِ بالخلافِ ، ويهيِّجُ الحرصَ على الإصرارِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ مرشدُ كلِّ معلِّمٍ : « لوْ مُنِعَ الناسُ عنْ فَتِّ البَعْرِ . . لَفَتُّوهُ وقالوا : ما نُهِينا عنهُ إلا وفيهِ شيءٌ ! »[1] .

وينبهُكَ علىٰ هـٰذا قصةُ آدمَ وحواءَ عليهما السلامُ وما نهيا عنهُ ، فما ذكرتِ القصَّةُ معكَ لتكونَ سمراً ، بلْ لتتنبَّهَ بها علىٰ سبيلِ العبرةِ .

ولأنَّ التعريضَ أيضاً يُميلُ النفوسَ الفاضلةَ والأذهانَ الذكيةَ إلى استنباطِ معانيهِ ، فيفيدُ فرحَ التفطُّنِ لمعناهُ رغبةً في العلمِ بهِ ؛ ليعلمَ أنَّ ذلكَ ممَّا لا يعزبُ عنْ فطنتِهِ .

الوظيفةُ الخامسةُ : أنَّ المتكفِّلَ ببعضِ العلومِ لا ينبغي أنْ يقبِّحَ في نفسِ المتعلِّمِ العلومَ التي وراءَهُ :

كمعلِّمِ اللغةِ ؛ إذْ عادتُهُ تقبيحُ الفقهِ ، ومعلِّمُ الفقهِ عادتُهُ تقبيحُ علْمِ الحديثِ والتفسيرِ ، وأنَّ ذلكَ نقلٌ محضٌ وسماعٌ صرْفٌ وهوَ شأنُ العجائزِ ، ولا نظرَ للعقلِ فيهِ ، ومعلِّمُ الكلامِ ينفِّرُ عنِ الفقهِ ويقولُ : ذلكَ فرعٌ ، وهوَ

---

(١) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١/ ٣٤١) : (قال العراقي : « لم أجده إلا من حديث الحسن مرسلاً وهو ضعيف ، رواه ابن شاهين » اهـ ، قلت : ووجدت بخط الداوودي ما نصه : ولفظ ابن شاهين : « لو منع الناس فتَّ الشوك . . لقالوا : فيه النَّدُّ » ، وفي المعنىٰ حديث أبي جحيفة : « لو نهيتم أن تأتوا الحجون . . لأتيتموها ») .

كلامٌ في حيضِ النِّسوانِ ، فأينَ ذلكَ مِنَ الكلامِ في صفةِ الرحمـٰنِ ؟!

فهـٰذهِ أخلاقٌ مذمومةٌ للمعلمينَ ينبغي أنْ تُجتنبَ ، بلِ المتكفِّلُ بعلْمٍ واحدٍ ينبغي أنْ يوسعَ على المتعلِّمِ طريقَ التعلُّمِ في غيرِهِ ، وإنْ كانَ متكفِّلاً بعلومٍ . . فينبغي أنْ يراعيَ التدريجَ في ترقيةِ المتعلِّمِ مِنْ رتبةٍ إلىٰ رتبةٍ .

الوظيفةُ السادسةُ : أنْ يقتصرَ بالمتعلِّمِ علىٰ قدْرِ فهمِهِ :

فلا يُلقي إليهِ ما لا يبلغُهُ عقلُهُ فينفرَهُ أوْ يخبطَ عليهِ عقلَهُ ؛ اقتداءً في ذلكَ بسيِّدِ البشرِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « نحنُ ـ معاشرَ الأنبياءِ ـ أُمرنا أنْ نُنْزِلَ الناسَ منازلَهُمْ ، ونُكَلِّمَهُمْ علىٰ قَدْرِ عقولِهِمْ »[1] .

فليبثَّ إليهِ الحقيقةَ إذا علمَ أنَّهُ يستقلُّ بفهمِها .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أحدٌ يُحَدِّثُ قوماً بحديثٍ لا تبلغُهُ عقولُهُمْ إلا كانَ فتنةً علىٰ بعضِهِمْ »[2] .

---

(١) هما حديثان ، فروىٰ أبو داوود (٤٨٤٢) مرفوعاً : « أنزلوا الناس منازلهم » ، وروى العقيلي في « الضعفاء » (٤/ ١٥٣٤) : « إنا معشر الأنبياء كذلك أمرنا أن نكلم الناس علىٰ قدر عقولهم » ، ومعناه سبق في حديث البخاري (١٢٧) الموقوف علىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (حدثوا الناس بما يعرفون . . .) .

(٢) رواه العقيلي في « الضعفاء » (٣/ ٩٣٧) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، ورواه مسلم في مقدمة « صحيحه » (١/ ١١) موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ وأشارَ إلىٰ صدرِهِ : (إنَّ هـٰهنا علوماً جمَّةً لوْ وجدتُ لها حَمَلَةً)[1] .

وصدقَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقلوبُ الأبرارِ قبورُ الأسرارِ ، فلا ينبغي أنْ يفشيَ العالمُ كلَّ ما يعلمُهُ إلىٰ كلِّ أحدٍ ، هـٰذا إذا كانَ يفهمُهُ المتعلِّمُ ولمْ يكنْ أهلاً للانتفاعِ بهِ ، فكيفَ فيما لا يفهمُهُ ؟!

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (لا تعلِّقوا الجوهرَ في أعناقِ الخنازيرِ ، فإنَّ الحكمةَ خيرٌ مِنَ الجوهرِ ، ومَنْ كرهَها . . فهوَ شرٌّ منَ الخنازيرِ)[2] .

ولذلكَ قيلَ : (كِلْ لكلِّ عبْدٍ بمعيارِ عقلِهِ ، وزِنْ لهُ بميزانِ فهمِهِ ؛ حتَّىٰ تسلَمَ منهُ وينتفعَ بكَ ، وإلا . . وقعَ الإنكارُ لتفاوتِ المعيارِ)[3] .

وسُئِلَ بعضُ العلماءِ عنْ شيءٍ فلمْ يجبْ ، فقالَ السائلُ : أما سمعتَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ كتمَ علماً نافِعاً . جاءَ يومَ القيامةِ مُلْجماً بلجامٍ مِنْ نارٍ »[4] ؟ فقالَ : اتركِ اللجامَ واذهبْ ؛ فإنْ جاءَ مَنْ نفعَهُ وكتمْتُهُ . . فليلجمْني[5] .

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٦/ ٣٧٦) ضمن حديث كُميل المشهور والذي سبق ذكره ، وانظر « قوت القلوب » (١/ ١٣٤) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٥٦) ، وانظر « تاريخ دمشق » (٦٨/ ٦٣) ضمن حديث طويل .

(٣) هو من قول صاحب « القوت » (١/ ١٥٦) ، وأصله من قول يحيى بن معاذ عنده : (اغرف لكل واحد من نهره ، واسقه بكأسه) .

(٤) رواه ابن ماجه (٢٦٥) .

(٥) الذريعة (ص١٨١) .

وقولُ اللهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ تنبيهٌ علىٰ أنَّ حفْظَ العلْمِ ممَّنْ يفسدُهُ ويضرُّهُ أولىٰ ، وليسَ الظلْمُ في إعطاءِ غيرِ المستحقِّ بأقلَّ مِنَ الظلمِ في منْعِ المستحقِّ ، كما قيلَ[1] : [من الطويل]

أَأَنْثُرُ دُرِّي بَيْنَ سَارِحَةِ ٱلنَّعَمْ ... وَأُصْبِحُ مَحْزُوناً بِرَاعِيَةِ ٱلْغَنَمْ
لِأَنَّهُمُ أَمْسَوْا بِجَهْلٍ لِقَدْرِهِ ... فَلاَ أَنَا أُضْحِي أَنْ أُطَوِّقَهُ ٱلْبَهَمْ
فَإِنْ لَطَفَ ٱللهُ ٱللَّطِيفُ بِلُطْفِهِ ... وَصَادَفْتُ أَهْلاً لِلْعُلُومِ وَلِلْحِكَمْ
نَشَرْتُ مُفِيداً وَٱسْتَفَدْتُ مَوَدَّةً ... وَإِلاَّ فَمَخْزُونٌ لَدَيَّ وَمُكْتَتَمْ
فَمَنْ مَنَحَ ٱلْجُهَّالَ عِلْماً أَضاعَهُ ... وَمَنْ مَنَعَ ٱلْمُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ

الوظيفةُ السابعةُ : أنَّ المتعلِّمَ القاصرَ ينبغي أنْ يُلْقَىٰ إليهِ الجليُّ اللائقُ بهِ ، ولا يذكُرُ لهُ أنَّ وراءَ هٰذا تدقيقاً وهوَ يدَّخِرُهُ عنهُ :

فإنَّ ذلكَ يفتِّرُ رغبتَهُ في الجليِّ ، ويشوِّشُ عليهِ قلبَهُ ، ويوهِمُ إليهِ البخلَ بهِ عنهُ ؛ إذْ يظنُّ كلُّ أحدٍ أنَّهُ أهلٌ لكلِّ علْمٍ دقيقٍ ، فما مِنْ أحدٍ إلا وهوَ راضٍ عنِ اللهِ سبحانَهُ في كمالِ عقلِهِ ، وأشدُّهُمْ حماقةً وأضعفُهُمْ عقلاً هوَ أفرحُهُمْ بكمالِ عقلِهِ .

وبهٰذا يُعلَمُ : أنَّ مَنْ تقيَّدَ مِنَ العوامِّ بقيدِ الشرعِ ، ورسخَتْ في نفسِهِ

---

(١) الأبيات للإمام الشافعي في « ديوانه » (ص١٢٨ـ ١٢٩) ، والأبيات الأربع الأولىٰ من (ب) و(ق) .

العقائدُ المأثورةُ عنِ السلفِ مِنْ غيرِ تشبيهٍ ومِنْ غيرِ تأويلٍ ، وحَسُنَ معَ ذلكَ سريرتُهُ ، ولمْ يحتملْ عقلُهُ أكثرَ مِنْ ذلكَ . . فلا ينبغي أنْ يشوِّشَ عليهِ اعتقادَهُ ، بلْ ينبغي أنْ يُخلَّىٰ وحرفتَهُ ؛ فإنَّهُ لوْ ذُكِرَ لهُ تأويلاتُ الظواهرِ . . انحلَّ عنهُ قيدُ العوامِّ ولمْ يتيسَّرْ قيدُهُ بقيدِ الخواصِّ ، فيرتفعُ السدُّ الذي بينَهُ وبينَ المعاصي ، وينقلبُ شيطاناً مريداً يهلكُ نفسَهُ وغيرَهُ .

بلْ لا ينبغي أنْ يُخاضَ بالعوامِّ في حقائقِ العلومِ الدقيقةِ ، بلْ يقتصرُ معهمْ علىٰ تعليمِ العباداتِ ، وتعليمِ الأمانةِ في الصناعةِ التي هوَ بصددِها ، ويملأُ قلوبَهُمْ مِنَ الرغبةِ والرهبةِ بالجنَّةِ والنارِ كما نطقَ بهِ القرآنُ ، ولا يحرِّكُ عليهِمْ شبهةً ؛ فإنَّهُ ربَّما تعلقَتِ الشبهةُ بقلبِهِ ويعسرُ عليهِ حلُّها ، فيشقَىٰ ويهلِكُ .

وبالجملةِ : لا ينبغي أنْ يفتحَ للعوامِّ بابَ البحثِ ؛ فإنَّهُ يعطِّلُ عليهِمْ صناعاتِهِمُ التي بها قوامُ الخلْقِ ، ودوامُ عيشِ الخواصِّ .

الوظيفةُ الثامنةُ : أنْ يكونَ المعلِّمُ عاملاً بعلمِهِ :

فلا يكذِّبُ قولَهُ فعلُهُ ؛ لأنَّ العلْمَ يُدركُ بالبصائرِ والعملَ يُدركُ بالأبصارِ ، وأربابُ الأبصارِ أكثرُ ، فإذا خالفَ العملُ العلمَ . . منعَ الرشدَ ، وكلُّ مَنْ تناولَ شيئاً وقالَ للناسِ : لا تتناولوهُ ؛ فإنَّهُ سمٌّ مهلكٌ . . سخرَ الناسُ بهِ واتهموهُ ، وزادَ حرصُهُمْ عليهِ ، فيقولونَ : لولا أنَّه أطيبُ الأشياءِ وألذُّها . . لما كانَ يستأثرُ بهِ !

ومَثلُ المعلِّمِ المرشدِ مِنَ المسترشدِ مثلُ النقْشِ مِنَ الطينِ والعودِ مِنَ الظلِّ ، فكيفَ ينتقشُ الطينُ بما لا نقشَ فيهِ ، ومتى استوى الظلُّ والعودُ أعوجُ ؟! ولذلكَ قيلَ[1] : [من الكامل]

لاَ تَنْـهَ عَـنْ خُلُـقٍ وَتَـأْتِـيَ مِثْلَـهُ عَـارٌ عَلَيْـكَ إِذَا فَعَلْـتَ عَظِيـمُ

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ .

ولذلكَ كانَ وِزْرُ العالِمِ في معاصيهِ أكبرَ مِنْ وزْرِ الجاهلِ ؛ إذْ يزِلُّ بزَلَّتِهِ عالَمٌ كثيرٌ ، فيقتدونَ بهِ ، و« مَنْ سَنَّ سُنَّةً سيِّئَةً . . فعليهِ وِزْرُها ووزْرُ مَنْ عمِلَ بها »[2] .

ولذلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (قَصَمَ ظهري رجلانِ : عالمٌ متهتِّكٌ ، وجاهلٌ متنسِّكٌ ، فالجاهلُ يغرُّ الناسَ بتنسُّكِهِ ، والعالِمُ ينفِّرُهُمْ بتهتُّكِهِ)[3] ، واللهُ أعلمُ .

* * *

(١) البيت لأبي الأسود الدؤلي في « ديوانه » (ص٤٠٤) ، وانظر « خزانة الأدب » (٨/ ٥٦٤) .

(٢) رواه مسلم (١٠١٧) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٤٠) بنحوه .

البَابُ السَّادِسُ
في آفاتِ العلم
وبيانِ علاماتِ علماءِ الآخرةِ وعلماءِ السوءِ

قدْ ذكرْنا ما وردَ مِنْ فضائلِ العلْمِ والعلماءِ ، وقدْ وردَ في العلماءِ السوءِ تشديداتٌ عظيمةٌ دلَّتْ علىٰ أنَّهُمْ أشدُّ الخلْقِ عذاباً يومَ القيامةِ ، فمِنَ المهمَّاتِ العظيمةِ معرفةُ العلاماتِ الفارقةِ بينَ علماءِ الدنيا وعلماءِ الآخرةِ ، ونعني بعلماءِ الدنيا العلماءَ السوءَ الذينَ قصْدُهمْ مِنَ العلمِ التنعُّمُ بالدنيا ، والتوصُّلُ إلى الجاهِ والمنزلةِ عندَ أهلِها .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أشدَّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ عالمٌ لمْ ينفعْهُ اللهُ بعلمِهِ »[1] .

ويروىٰ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّه قالَ : « لا يكونُ المرْءُ عالماً حتَّىٰ يكونَ بعلْمِهِ عامِلاً »[2] .

---

(١) رواه الطبراني في « الصغير » (١/ ١٨٢) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٤٢) .

(٢) رواه الخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (١٧) موقوفاً علىٰ أبي الدرداء رضي الله عنه وبلفظ : (ولا تكون بالعلم عالماً حتىٰ تكون به عاملاً) ، قال الحافظ الزبيدي : (قال العراقي في « التخريج الكبير » : لم أجده مرفوعاً) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٣٤٨) .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العلمُ علمانِ : علمٌ على اللسانِ فذلكَ حُجَّةُ اللهِ تعالىٰ على ابنِ آدمَ ، وعلمٌ في القلبِ فذلكَ العلمُ النافعُ »(١) .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يكونُ في آخرِ الزمانِ عُبَّادٌ جُهَّالٌ وعلماءُ فُسَّاقٌ »(٢) .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تتعلَّمُوا العلمَ لتُباهوا بهِ العلماءَ ، ولتماروا بهِ السفهاءَ ، ولتصرِفوا وجوهَ الناسِ إليكُمْ ، فَمَنْ فعلَ ذلكَ . . فهوَ في النارِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كتمَ علماً عندَهُ . . أَلْجمَهُ اللهُ بلجامٍ مِنْ نارٍ »(٤) .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأَنا مِنْ غيرِ الدَّجَّالِ أخوفُ عليكُمْ منَ الدجَّالِ » فقيلَ : وما ذاكَ ؟ فقالَ : « مِنَ الأئمَّةِ المضلِّينَ »(٥) .

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٥/ ١٠٧ـ ١٠٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٥١) .

(٢) رواه الآجري في « أخلاق العلماء » (٦٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٣١) .

(٣) رواه ابن ماجه (٢٥٩) .

(٤) رواه ابن ماجه (٢٦٥) .

(٥) رواه أحمد في « مسنده » (٥/ ١٤٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ ٱزدادَ علماً ولمْ يَزْدَدْ هدَىً . . لمْ يزدَدْ مِنَ اللهِ إلا بُعْداً »[1] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (إلىٰ متىٰ تَصِفُونَ الطريقَ للمُدْلِجينَ وأنتمْ مقيمونَ معَ المتحيِّرينَ ؟!)[2].

فهـٰذا وغيرُهُ مِنَ الأخبارِ يدلُّ علىٰ عظيمِ خطرِ العلمِ ، وأنَّ العالِمَ إمَّا متعرِّضٌ لهلاكِ الأبدِ ، أوْ لسعادةِ الأبدِ ، وأنَّهُ بالخوضِ في العلْمِ قدْ حُرِمَ السلامةَ إنْ لمْ يدركِ السعادةَ .

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : إنَّ أخوفَ ما أخافُ علىٰ هـٰذهِ الأُمَّةِ المنافقُ العليمُ ، قالوا : وكيفَ يكونُ منافقاً عليماً ؟ قالَ : عليمَ اللسانِ جاهلَ القلبِ والعملِ[3] .

وقالَ الحسنُ : (لا تكنْ ممَّنْ يجمعُ علْمَ العلماءِ وطرائفَ الحكماءِ

---

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٨٨٧) ، قال الحافظ الزبيدي نقلاً عن الحافظ العراقي : (والمشهور أن هـٰذا الحديث من قول الحسن البصري) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٣٥١) .

(٢) اقتضاء العلم العمل (٦٠) ، **والمدلجون** : السائرون بالليل ، والمراد بهم : الزهاد والسالكون إلى الله تعالىٰ ، **والمتحيرون** : الواقفون .

(٣) أخرجه الضياء في « الأحاديث المختارة » (٢٣٦) ، وأصله عند « أحمد » (١/ ٢٢) .

ويجري في العملِ مَجرى السفهاء)[1] .

وقالَ رجلٌ لأبي هريرةَ : أريدُ أنْ أتعلَّمَ العلْمَ وأخافُ أنْ أضيِّعَهُ ، فقالَ : كفىٰ بتركِكَ العلْمَ إضاعةً لهُ[2] .

وقيلَ لإبراهيمَ بنِ عيينةَ : أيُّ الناسِ أطولُ ندامةً ؟ قالَ : أمَّا في عاجلِ الدنيا . . فصانعُ المعروفِ إلىٰ مَنْ لا يشكرُهُ ، وأمَّا عندَ الموتِ . . فعالِمٌ مفرِّطٌ .

وقالَ الخليلُ بنُ أحمدَ : (الرجالُ أربعةٌ : رجلٌ يدري ويدري أنَّهُ يدري ؛ فذلكَ عالمٌ فاتبعوهُ ، ورجلٌ يدري ولا يدري أنَّهُ يدري ؛ فذلكَ نائِمٌ فأيقظوهُ ، ورجلٌ لا يدري ويدري أنَّهُ لا يدري ؛ فذلكَ مسترشدٌ فعلِّموهُ، ورجلٌ لا يدري ولا يدري أنَّهُ لا يدري ؛ فذلكَ جاهلٌ فارفضوهُ)[3].

وقالَ سفيانُ الثوريُّ رحمهُ اللهُ: (يهتفُ العلمُ بالعملِ ، فإنْ أجابَهُ ، وإلا . . ارتحلَ)[4] .

وقال ابنُ المباركِ : (لا يزالُ المرءُ عالماً ما طلبَ العلمَ ، فإذا ظنَّ أنَّهُ قدْ علِمَ . . فقدْ جهلَ)[5] .

---

(١) أورده ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢٦٢) .
(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٧/ ٣٦٨) ، وفي « البيان والتبيين » (١/ ٢٥٧) : (وقال أبو هريرة النحوي) .
(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥٣٨) بنحوه .
(٤) اقتضاء العلم العمل (٤١) .
(٥) أورده ابن قتيبة غير منسوب في « عيون الأخبار » (٢/ ١١٨) .

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رحمهُ اللهُ : (إنِّي لأرحمُ ثلاثةً : عزيزَ قومٍ ذلَّ ، وغنياً افتقرَ ، وعالماً تلعبُ بهِ الدنيا)[1] .

وقالَ الحسنُ : (عقوبةُ العلماءِ موتُ القلبِ ، وموتُ القلبِ طلبُ الدنيا بعملِ الآخرةِ)[2] .

وأنشدوا[3] : [من الطويل]

عَجِبْتُ لِمُبْتاعِ ٱلضَّلالَةِ بِٱلْهُدَى ... وَمَنْ يَشْتَرِي دُنْياهُ بِالدِّينِ أَعْجَبُ

وَأَعْجَبُ مِنْ هَـٰذَيْنِ مَنْ بَاعَ دِينَهُ ... بِدُنْيَا سِوَاهُ فَهْوَ مِنْ ذَيْنِ أَعْجَبُ

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العالمَ لَيُعَذَّبُ عذاباً يَطِيفُ بهِ أهلُ النَّارِ ٱسْتِعْظاماً لشدَّةِ عذابِهِ »[4] ، أرادَ بهِ العالمَ الفاجرَ .

وقالَ أسامةُ بنُ زيدٍ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يُؤتَىٰ بالعالِمِ يومَ القيامةِ ، فيُلقَىٰ في النارِ ، فَتَنْدَلِقُ أقْتَابُهُ ، فيدورُ بها كما يدورُ الحمارُ بالرَّحَىٰ ، فيطيفُ بهِ أهلُ النارِ فيقولونَ : ما لكَ ؟ فيقولُ : كنتُ آمرُ بالخيرِ ولا آتيهِ ، وأنهَىٰ عنِ الشرِّ وآتيهِ »[5] .

---

(١) المدخل إلى السنن الكبرى (٥٧٦) وله روايات في المرفوع .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٦٩٦)، وابن المبارك في « الزهد » (١٥١٤) .

(٣) البيتان لمالك بن دينار ، انظر « ربيع الأبرار » (٤/ ١٨٥) ، و« وفيات الأعيان » (٦/ ١٧٠) ، و« حياة الحيوان » (١/ ٤٢٢) ، و« زهر الأكم » (١/ ٢٨٨) .

(٤) قال الحافظ الزبيدي : (قال العراقي : لم أجده بهـٰذا اللفظ ، وهو بمعنىٰ حديث أسامة بن زيد الآتي بعده) .

(٥) رواه البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩) ، **والأقتاب** : الأمعاء .

وإنَّما يُضاعفُ عذابُ العالمِ في معصيتِهِ لأنَّهُ عصَىٰ عنْ علمٍ ، ولذلكَ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ ؛ لأنَّهمْ جحدُوا بعدَ العلمِ .

وجعلَ اليهودَ شرّاً مِنَ النصارىٰ معَ أنَّهُمْ ما جعلوا للهِ سبحانَهُ ولداً ولا قالوا : إنَّهُ ثالثُ ثلاثةٍ ، ولكنْ أنكروا بعدَ المعرفةِ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾[1] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ في قصَّةِ بَلْعَامَ بنِ باعوراءَ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ حتَّىٰ قالَ : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ ، وكذلكَ العالمُ الفاجرُ ، فإنَّ بَلْعَامَ أوتيَ كتابَ اللهِ تعالىٰ ، فأخلدَ إلى الشهواتِ ، فشُبِّهَ بالكلبِ ؛ أي : سواءٌ أُوتيَ الحكمةَ أوْ لمْ يُؤتَ . . فهوَ يلهثُ إلى الشهواتِ .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مثلُ علماءِ السوءِ كمثلِ صخرةٍ وقعتْ علىٰ فمِ النهرِ ، لا هيَ تشربُ الماءَ ، ولا هيَ تتركُ الماءَ يخلصُ إلى الزرعِ ، ومثلُ علماءِ السوءِ مثلُ قناةِ الحُشِّ ، ظاهرُها جَصٌّ وباطنُها نتنٌ ، ومثلُ القبورِ ، ظاهرُها عامرٌ وباطنُها عظامُ الموتىٰ)[2] .

---

(١) أي : يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم بأنه رسول الله دون أدنىٰ ريبة .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٤١) .

فهـٰذهِ الأخبارُ والآثارُ تبيِّنُ أنَّ العالمَ الذي هوَ مِنْ أبناءِ الدنيا أخسُّ حالاً وأشدُّ عذاباً مِنَ الجاهلِ، وأنَّ الفائزينَ المقرَّبينَ همْ علماءُ الآخرةِ، ولهمْ علاماتٌ:

فمنها : ألا يطلبَ الدنيا بعلمِهِ : فإنَّ أقلَّ درجاتِ العالِمِ أنْ يدركَ حقارةَ الدنيا وخسَّتَها وكدورتَها وانصرامَها ، وعِظَمَ الآخرةِ ودوامَها وصفاءَ نعيمِها وجلالةَ ملكِها ، ويعلمَ أنَّهما متضادتانِ ، وأنَّهما كالضرَّتينِ ؛ مهما أرضيتَ إحداهما . . أسخطتَ الأخرىٰ ، وأنَّهما ككفَّتي الميزانِ ؛ مهما رجحتْ إحداهما . . خفَّتِ الأخرىٰ ، وأنَّهما كالمشرقِ والمغربِ ؛ مهما قربتَ مِنْ أحدِهما . . بعدتَ عنِ الآخرِ ، وأنَّهما كقدحينِ أحدُهما مملوءٌ ، والآخرُ فارغٌ ؛ فبقدْرِ ما تصبُّ منهُ في الآخرِ حتَّىٰ يمتلىءَ . . يفرُغُ الآخرُ .

فإنَّ مَنْ لا يعلمُ حقارةَ الدنيا وكدورتَها وامتزاجَ لذَّتِها بألمِها ثمَّ انصرامَ ما يصفو منها . . فهوَ فاسدُ العقلِ ؛ فإنَّ المشاهدةَ والتجربةَ ترشدُ إلىٰ ذلكَ ، فكيفَ يكونُ مِنَ العلماءِ مَنْ لا عقلَ لهُ ؟!

ومَنْ لا يعلمُ عِظَمَ أمرِ الآخرةِ ودوامَها . . فهوَ كافرٌ مسلوبُ الإيمانِ ، فكيفَ يكونُ مِنَ العلماءِ مَنْ لا إيمانَ لهُ ؟!

ومَنْ لا يعلمُ مضادَّةَ الدنيا للآخرةِ ، وأنَّ الجمعَ بينَهما طمعٌ في غيرِ مطمعٍ . . فهوَ جاهلٌ بشرائعِ الأنبياءِ كلِّهِمْ ، بلْ هوَ كافرٌ بالقرآنِ كلِّهِ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ ، فكيفَ يُعدُّ مِنْ زمرةِ العلماءِ ؟!

ومَنْ علمَ هـٰذا كلَّهُ ، ثمَّ لمْ يؤثرِ الآخرةَ على الدنيا . . فهوَ أسيرُ

الشيطانِ ، قدْ أهلكتْهُ شهوتُهُ ، وغلبتْ عليهِ شِقوتُهُ ، فكيفَ يُعدُّ مِنْ حزبِ العلماءِ مَنْ هـٰذهِ درجتُهُ ؟!

وفي أخبارِ داوودَ عليهِ السلامُ حكايةً عنِ اللهِ تعالىٰ : (إنَّ أدنىٰ ما أصنعُ بالعالِمِ إذا آثرَ شهوتَهُ علىٰ محبَّتي أنْ أحرمَهُ لذيذَ مناجاتي ، يا داوودُ ؛ لا تسألنْ عنِّي عالماً قدْ أسكرَتْهُ الدنيا فيصدَّكَ عنْ طريقِ محبَّتي ، أولئكَ قطَّاعُ الطريقِ علىٰ عبادي ، يا داوودُ ؛ إذا رأيتَ لي طالباً . . فكنْ لهُ خادماً ، يا داوودُ ؛ مَنْ رَدَّ إليَّ هارباً . . كتبتُهُ جِهْبذاً ، ومَنْ كتبتُهُ جِهْبذاً . . لمْ أعذبْهُ أبداً)[1] .

ولذلكَ قالَ الحسنُ رحمهُ اللهُ : (عقوبةُ العلماءِ موتُ القلبِ ، وموتُ القلْبِ طلبُ الدنيا بعملِ الآخرةِ)[2] .

ولذلكَ قالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ الرازيُّ : (إنَّما يذهبُ بهاءُ العلمِ والحكمةِ إذا طُلِبَ بهما الدنيا)[3] .

وقالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ رحمَهُ اللهُ : (إذا رأيتمُ العالمَ يغشَى الأمراءَ . . فهوَ لصٌّ)[4] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤١) ، والقطعة الأخيرة روىٰ بنحوها أحمد في « الزهد » (٩٧٧).
(٢) جامع بيان العلم وفضله (١١٦٥) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٧٦) منسوباً لأحد الحكماء .
(٤) رواه ابن الطيوري في « الطيوريات » (٦٩٠) من طريق سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا رأيتمُ العالمَ محبّاً للدنيا . . فاتهموهُ علىٰ دينِكُمْ ؛ فإنَّ كلَّ محبٍّ يخوضُ فيما أحبَّ)[1] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ رحمهُ اللهُ : (قرأتُ في بعضِ الكتبِ السالفةِ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : إنَّ أهونَ ما أصنعُ بالعالمِ إذا أحبَّ الدنيا أنْ أخرجَ حلاوةَ مناجاتي مِنْ قلبِهِ)[2] .

وكتبَ رجلٌ إلىٰ أخٍ لهُ : إنَّكَ قدْ أوتيتَ علماً ، فلا تطفِئَنَّ نورَ علمِكَ بظلمةِ الذنوبِ فتبقىٰ في الظلمةِ يومَ يسعىٰ أهلُ العلمِ في نورِ علمِهِمْ[3] .

وكانَ يحيىٰ بنُ معاذٍ الرازيُّ رحمهُ اللهُ يقولُ لعلماءِ الدنيا : (يا أصحابَ العلمِ ؛ قصورُكُمْ قَيْصَرِيَّةٌ ، وبيوتُكُمْ كِسْرَوِيَّةٌ ، وأثوابُكُمْ طاهِرِيَّةٌ[4] ، وأخفافُكُمْ جالُوتِيَّةٌ ، ومراكبُكُمْ قارونيَّةٌ ، وأوانيكُمْ فِرعَونيَّةٌ ، ومآتمُكُمْ جاهليَّةٌ ، ومذاهبُكُمْ شيطانيَّةٌ ، فأينَ الشريعةُ المحمديةُ ؟!)[5] .

قالَ الشاعرُ[6] : [من الوافر]

وَراعِي ٱلشَّاةِ يَحْمِي ٱلذِّئْبَ عَنْهَا فَكَيْفَ إِذا ٱلرُّعاةُ لَها ذِئابُ

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١١٧٤) من قول جعفر بن محمد بنحوه .
(٢) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/ ٣٦٠) بنحوه .
(٣) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/ ١٤٦) .
(٤) طاهرية : منسوبة إلىٰ عبد الله بن طاهر بن الحسين الوزير ، وكان يتغالىٰ في الثياب . « إتحاف » (١/ ٣٥٨) .
(٥) رواه الحافظ السلفي في « معجم السفر » (٨٠٤) .
(٦) سراج الملوك (١/ ٢١١) .

وقالَ آخرُ[1] : [من الرجز]

يـا مَعْشَـرَ ٱلْقُـرَّاءِ يـا مِلْـحَ ٱلْبَلَـدْ ما يُصْلِحُ ٱلْمِلْحَ إِذا ٱلْمِلْحُ فَسَدْ

وقيـلَ لبعـضِ العـارفيـنَ : أتـرىٰ أنَّ مَـنْ تكـونُ المعـاصـي قـرَّةَ عينِـهِ لا يعرفُ اللهَ ؟ قالَ : ما أشكُّ أنَّ مَنْ تكونُ الدنيا عندَهُ آثرَ مِنَ الآخرةِ أنَّهُ لا يعرفُ اللهَ تعالىٰ ، وهـٰذا دونَ ذلكَ بكثيرٍ[2] .

ولا تظنَّنَّ أنَّ تركَ المالِ يكفي في اللحوقِ بعلماءِ الآخرةِ ؛ فإنَّ الجاهَ أضرُّ مِنَ المالِ ، ولذلكَ قالَ بشرٌ : (« حدَّثَنا » بابٌ مِنْ أبوابِ الدنيا ، فإذا سمعتَ الرجلَ يقولُ : « حدَّثَنا » . . فإنَّما يقولُ : أَوْسِعوا لي)[3] .

ودفنَ بشْرُ بنُ الحارثِ بضعةَ عشرَ ما بينَ قمطرٍ وقوصرةٍ مِنَ الكتبِ، وكانَ يقولُ: (أنا أشتهي أنْ أحدِّثَ، ولوْ ذهبتْ عني شهوةُ الحديثِ . . لحدَّثْتُ)[4] .

وقالَ هوَ وغيرُهُ : (إذا اشتهيتَ أنْ تحدِّثَ . . فلا تحدِّثْ ، وإذا لمْ تشتهِ . . فحدِّثْ)[5] .

وهـٰذا لأنَّ التلذُّذَ بجاهِ الإفادةِ ومنصبِ الإرشادِ أعظمُ لذَّةً مِنْ كلِّ تنعُّمٍ في الدنيا ، فمنْ أجابَ شهوتَهُ فيهِ . . فهوَ مِنْ أبناءِ الدنيا ، ولذلكَ قالَ

---

(١) عجائب المقدور (٤٨٥) .
(٢) حلية الأولياء (٦/ ٢٧٩) بنحوه .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٣٥) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٥٦) .
(٥) قوت القلوب (١/ ١٥٦) ، وشرف أصحاب الحديث (٢٣٠) بنحوه .

الثوريُّ : (فتنةُ الحديثِ أشدُّ مِنْ فتنةِ الأهلِ والمالِ والولدِ ، وكيفَ لا تُخافُ فتنتُهُ وقدْ قيلَ لسيِّدِ المرسلينَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ ؟!)[1] .

وقالَ سهلٌ رحمهُ اللهُ : (العلْمُ كلُّهُ دنيا ، والآخرةُ منهُ العملُ بهِ ، والعملُ كلُّهُ هباءٌ إلا الإخلاصَ)[2] .

وقالَ : (الناسُ كلُّهمْ موتىٰ إلا العلماءَ ، والعلماءُ سُكارىٰ إلا العاملينَ ، والعاملونَ مغرورونَ إلا المخلصينَ ، والمخلِصُ علىٰ وجلٍ حتَّىٰ يختمَ لهُ بهِ)[3] .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (إذا طلبَ الرجلُ الحديثَ أوْ تزوَّجَ أوْ سافرَ في طلبِ المعاشِ . . فقدْ ركنَ إلى الدنيا)[4] .

وإنَّما أرادَ بهِ طلبَ الأسانيدِ العاليةِ ، أو طلبَ الحديثِ الذي لا يحتاجُ إليهِ في طريقِ الآخرةِ .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (كيفَ يكونُ مِنْ أهلِ العلمِ مَنْ مصيرُهُ إلىٰ آخرتِهِ وهوَ مقبلٌ علىٰ دنياهُ ؟! وكيفَ يكونُ مِنْ أهلِ العلمِ مَنْ يطلبُ الكلامَ ليخبرَ بهِ لا ليعملَ بهِ ؟!)[5] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٥٦) .
(٢) اقتضاء العلم العمل (٢٠) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٥٨) ، واقتضاء العلم العمل (٢٢) بنحوه .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٣٥) .
(٥) سنن الدارمي (٣٨٠) ضمن حديث طويل عنه عليه السلام .

وقالَ صالحُ بنُ حسانَ البصريُّ : (أدركتُ الشيوخَ وهمْ يتعوَّذونَ باللهِ مِنَ الفاجرِ العالمِ بالسنةِ)[1] .

وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ طلبَ عِلماً ممَّا يُبْتَغَىٰ بهِ وجهُ اللهِ تعالىٰ لِيُصِيبَ بهِ عرضاً مِنَ الدنيا . . لمْ يَجِدْ عَرْفَ الجنةِ يومَ القيامَةِ »[2] .

وقدْ وصفَ اللهُ تعالىٰ علماءَ السوءِ بأكْلِ الدنيا بالعلمِ ، ووصفَ علماءَ الآخرةِ بالخشوعِ والزهدِ ؛ فقالَ عزَّ وجلَّ في علماءِ الدنيا : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ في علماءِ الآخرةِ : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[3] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (العلماءُ يُحشرونَ في زمرةِ الأنبياءِ ، والقضاةُ يُحشرونَ في زمرةِ السلاطينِ)[4] .

وفي معنى القضاةِ : كلُّ فقيهٍ قصْدُهُ طلبُ الدنيا بعلمِهِ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤١) .

(٢) رواه أبو داوود (٣٦٦٤) ، وابن ماجه (٢٥٢) .

(٣) وتمام الأولىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ ، والثانية : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٥٧) .

وروىٰ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « أوحَى اللهُ عزَّ وجَلَّ إلىٰ بعضِ الأنبياءِ : قُلْ للذينَ يتفقَّهونَ لغيرِ الدِّينِ ، ويتعلَّمُونَ لغيرِ العملِ ، ويطلبونَ الدنيا بعملِ الآخرةِ ، يلبَسُونَ للناسِ مُسُوكَ الكِباشِ وقلوبُهُمْ كقلوبِ الذئابِ ، ألسِنتُهُمْ أحْلَىٰ مِنَ العسلِ ، وقلوبُهُمْ أمرُّ مِنَ الصَّبرِ ، إيَّايَ يخادعونَ ، وبي يستهزئونَ ، لأفتحَنَّ لهُمْ فتنةً تَذَرُ الحليمَ حَيرانَ »[1] .

وروى الضحّاكُ عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا ، قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « علماءُ هـٰذهِ الأمَّةِ رجلانِ :

رجلٌ آتاهُ اللهُ علماً ، فبَذَلَهُ للناسِ ، ولمْ يأخذْ عليهِ طَمَعاً ، ولمْ يشترِ بهِ ثمناً ؛ فذلكَ يُصلِّي عليهِ طيرُ السماءِ وحيتانُ الماءِ ودوابُّ الأرضِ والكرامُ الكاتبُونَ ، يقدَمُ على اللهِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ سَيِّداً شريفاً حتَّىٰ يرافِقَ المرسلينَ .

ورجلٌ آتاهُ اللهُ علماً في الدنيا ، فضَنَّ بهِ علىٰ عبادِ اللهِ ، وأخذَ عليهِ طَمَعاً ، واشترىٰ بهِ ثمناً ؛ فذلكَ يأتي يومَ القيامَةِ مُلْجَماً بلجامٍ مِنْ نارٍ ، ينادي مُنادٍ علىٰ رُؤوسِ الخلائِقِ : هـٰذا فلانُ بنُ فلانٍ ، آتاهُ اللهُ علماً في

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٣٩) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١٠٦٨) ، وأصله عند الترمذي (٢٤٠٤) ، والمسوك : جمع مَسْك ، وهو الجلد ؛ إشارة إلىٰ لبس الصوف .

الدنيا فضَنَّ بِهِ عَلىٰ عبادِ اللهِ ، وأخذَ بهِ طمعاً ، واشترىٰ بهِ ثمناً ، فيُعذَّبُ حتَّىٰ يفرغَ مِنْ حسابِ الناسِ »[1] .

وأشدُّ مِنْ هـٰذا ما رُوِيَ أنَّ رجلاً كانَ يخدمُ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فجعلَ يقولُ : (حدَّثَنِي موسىٰ صفيُّ اللهِ ، حدَّثَنِي موسىٰ نجيُّ اللهِ ، حدَّثَني موسىٰ كليمُ اللهِ) حتىٰ أَثْرَىٰ وكثرَ مالُه ، ففقدَهُ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فجعلَ يسألُ عنهُ فلا يحسُّ لهُ خبراً ، حتَّىٰ جاءَهُ رجلٌ ذاتَ يومٍ وفي يدِهِ خنزيرٌ وفي عنقِهِ حبلٌ أسودُ ، فقالَ لهُ موسىٰ عليهِ السلامُ : أتعرفُ فلاناً ؟ قالَ : نعمْ ، هوَ هـٰذا الخنزيرُ ، فقالَ موسىٰ : يا ربِّ ؛ أسألُكَ أنْ تردَّهُ إلىٰ حالِهِ حتَّىٰ أسألَهُ بِمَ أصابَهُ هـٰذا ؟ فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِ : لوْ دعوتَني بالذي دعاني بهِ آدمُ فمَنْ دونَهُ . . ما أجبتُكَ فيهِ ، ولكنْ أخبرُكَ لمَ صنعتُ هـٰذا بهِ : لأنَّهُ كانَ يطلبُ الدنيا بالدينِ[2] .

وأغلظُ مِنْ هـٰذا ما رويَ عنْ معاذِ بنِ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ موقوفاً ومرفوعاً في روايةٍ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مِنْ فتنةِ العالمِ أنْ يكونَ الكلامُ أحبَّ إليهِ مِنَ الاستماعِ ، وفي الكلامِ تنميقٌ وزيادةٌ ، ولا يُؤْمَنُ علىٰ صاحبِهِ الخطأُ ، وفي الصمتِ سلامةٌ وعلمٌ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ يَخْزُنُ علمَهُ فلا يحبُّ أنْ يوجدَ عندَ غيرِهِ ؛ فذلكَ في الدَّرْكِ الأوَّلِ مِنَ النارِ ، ومنَ العلماءِ مَنْ يكونُ في علمِهِ بمنزلةِ السلطانِ ، فإنْ رُدَّ عليهِ شيءٌ مِنْ علمِهِ ، أو

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٧١٨٣) .

(٢) تاريخ دمشق (٦١/ ١٥٢) ، وقوت القلوب (١/ ١٤٤) .

تُهُوونَ بشيءٍ مِنْ حقِّهِ . . غضبَ ؛ فذلكَ في الدركِ الثاني مِن النارِ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ يجعلُ عِلْمَهُ وغرائبَ حَدِيثِهِ لأهلِ الشرفِ واليسارِ ولا يرىٰ أهلَ الحاجَةِ لهُ أهلاً ؛ فذلكَ في الدركِ الثالثِ مِنَ النارِ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ ينصبُ نفسَهُ للفتيا فيفتي بالخطأِ ، واللهُ تعالىٰ يبغضُ المتكلِّفينَ ؛ فذلكَ في الدركِ الرابعِ مِنَ النارِ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ يتكلَّمُ بكلامِ اليهودِ والنصارىٰ ليغْزُرَ بهِ علمُهُ ؛ فذلكَ في الدركِ الخامسِ مِنَ النارِ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ يتخذُ علمَهُ مروءةً ونُبْلاً وذكراً في الناسِ ؛ فذلكَ في الدركِ السادسِ مِنَ النارِ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ يستفِزُّهُ الزهْوُ والعُجْبُ ، فإنْ وعظَ . . عَنَّفَ ، وإنْ وُعِظَ . . أَنِفَ ؛ فذلكَ في الدركِ السابعِ مِنَ النارِ .

وعليكَ بالصمتِ ؛ فبهِ تغلبُ الشيطانَ ، وإيَّاكَ أنْ تضحكَ مِنْ غيرِ عَجَبٍ ، أوْ تمشيَ في غيرِ أرَبٍ »[1] .

وفي خبرٍ آخرَ : « إنَّ العبدَ ليُنْشَرُ لهُ مِنَ الثناءِ ما بينَ المشرقِ

---

(١) قال أبو طالب في « القوت » (١/ ١٤٤) : (وقد روينا في مقامات علماء السوء حديثاً شديداً نعوذ بالله من أهله ، ونسأله ألا يبلونا بمقام منه ، فرويناه مرة مسنداً من طريق ، ورويناه موقوفاً علىٰ معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وأنا أذكره موقوفاً أحب إلي ، حدثونا عن منذر بن علي ، عن أبي نعيم الشامي ، عن محمد بن زياد ، عن معاذ بن جبل يقول فيه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووافقته أنا علىٰ معاذ) وذكره بلفظه هنا ، وأصله عند ابن المبارك في « الزهد » (٤٨) ، وانظر « جامع بيان العلم وفضله » (٩١٠ ، ٩١١) .

والمغربِ ، وما يزنُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ »[1] .

ورُوِيَ أنَّ الحسنَ انصرفَ مِنْ مجلسِهِ ، فحملَ إليهِ رجلٌ مِنْ خراسانَ كيساً فيهِ خمسةُ آلافِ درهمٍ وعشرةُ أثوابٍ مِنْ رقيقِ البزِّ وقالَ : يا أبا سعيدٍ ؛ هـٰذهِ نفقةٌ وهـٰذهِ كِسوةٌ ، فقالَ الحسنُ : عافاكَ اللهُ تعالىٰ ، ضُمَّ إليكَ نفقتَكَ وكُسْوتَكَ ، فلا حاجةَ لنا بذلكَ ؛ إنَّهُ مَنْ جلسَ مثلَ مجلسي هـٰذا وقَبِلَ مِنَ الناسِ مثلَ هـٰذا . . لقيَ اللهَ تعالىٰ يومَ القيامةِ ولا خلاقَ لهُ[2] .

ورويَ عنْ جابرٍ رضيَ اللهُ عنهُ موقوفاً ومرفوعاً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « لا تجلسوا عندَ كلِّ عالمٍ إلا عالمٍ يدعوكُمْ مِنْ خمسٍ إلىٰ خمسٍ : مِنَ الشكِّ إلى اليقينِ ، ومِنَ الرياءِ إلى الإخلاصِ ، ومِنَ الرغبةِ إلى الزهدِ ، ومِنَ الكِبْرِ إلى التواضعِ ، ومِنَ العداوةِ إلى النصيحةِ »[3] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ

---

(١) كذا أورده في « القوت » (١/ ١٤٤) ، وفي « البخاري » (٤٧٢٩) ، ومسلم (٢٧٨٥) مرفوعاً : « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، قال : اقرؤوا : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ » .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٤٤) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٧٢) ، وارتضىٰ أبو طالب وقفه في « القوت » (١/ ١٤٤) علىٰ جابر رضي الله عنه ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١/ ٣٦٧) بعد أن جمع له طرقاً : (فبهـٰذه الطرق يتقوىٰ جانب الرفع) .

وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ﴾ الآيةَ ، فعرَّفَ أهلَ العلمِ بإيثارِ الآخرةِ على الدنيا .

❀ ❀ ❀

ومنها : ألا يخالفَ فعلُهُ قولَهُ : بلْ لا يأمرُ بالشيءِ ما لمْ يكنْ هوَ أولَ عاملٍ بهِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ .

وقالَ تعالىٰ في قصَّةِ شعيبٍ : ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوا۟﴾ ، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟﴾ .

وقالَ تعالىٰ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : « يا بنَ مريمَ ؛ عظْ نفسَكَ ، فإنِ اتعظتَ . . فعظِ الناسَ ، وإلا . . فاستحيِ منِّي »[1] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مررتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي بأقوامٍ تُقْرَضُ شفاهُهُمْ بمقاريضَ مِنْ نارٍ ، فقلتُ : مَنْ أنتُمْ ؟ فقالوا : إنَّا كنَّا نأمرُ بالخيرِ ولا نأتيهِ ، وننهىٰ عنِ الشرِّ ونأتِيهِ »[2] .

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٣٠٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٨٢) .

(٢) رواه أحمد في « مسنده » (٣/ ١٢٠) بنحوه ، وفي (ج) : (نأمر بالخير ولا نفعله ، وننهىٰ عن الشر ونفعله) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هلاكُ أمَّتِي عالمٌ فاجرٌ وعابدٌ جاهلٌ ، وشرُّ الشِّرارِ شرارُ العلماءِ ، وخيرُ الخِيارِ خيارُ العلماءِ »[١] .

وقالَ الأوزاعيُّ رحمهُ اللهُ : (شكتِ النواويسُ[٢] ما تجدُ مِنْ نَتنِ جيفِ الكفارِ ، فأوحى اللهُ إليها : بطونُ علماءِ السوءِ أنتنُ ممَّا أنتُمْ فيهِ)[٣] .

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رحمهُ اللهُ : (بلغني أنَّ الفسقةَ مِنَ العلماءِ يُبدأُ بهِمْ يومَ القيامةِ قبلَ عبدةِ الأوثانِ)[٤] .

وقالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (ويلٌ لمنْ لا يعلمُ مرَّةً ، وويلٌ لمنْ يعلَمُ ولا يعملُ سبعَ مرَّاتٍ)[٥] .

وقالَ الشعبيُّ : (يطَّلِعُ قومٌ مِنْ أهلِ الجنَّةِ علىٰ قومٍ مِنْ أهلِ النارِ فيقولونَ لهُمْ : ما أدخلَكُمُ النارَ وإنَّما أدخلَنا اللهُ الجنَّةَ بفضْلِ تأديبِكُمْ وتعليمِكُمْ ؟

---

(١) علقه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٦٢) من حديث ابن وهب مرفوعاً ، والشطر الثاني منه عند الدارمي في « سننه » (٣٨٢) ، قال الحافظ الزبيدي : (ومن الشواهد للجملة الأولىٰ ما أورده صاحب « القوت » (١/ ١٤٠) : « وروينا عن عمر وغيره : كم من عالم فاجر وعابد جاهل ، فاتقوا الفاجر من العلماء ، والجاهل من المتعبدين ») ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٣٦٩) .

(٢) **النواويس** : جمع ناووس ، وهي المقابر .

(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٦٣) .

(٤) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٦٤) .

(٥) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/ ٢١١) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢١٢) .

فقالوا : إنَّا كنَّا نأمرُ بالخيرِ ولا نفعلُهُ)[1] .

وقالَ حاتِمٌ الأصمُّ رحمهُ اللهُ : (ليسَ في القيامةِ أشدَّ حسرةً مِنْ رجلٍ علَّمَ الناسَ علماً فعملوا بهِ ولمْ يعملْ هوَ بهِ ، ففازوا بسببِهِ وهلكَ هوَ)[2] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (إنَّ العالمَ إذا لم يعملْ بعلمِهِ . . زلَّتْ موعظتُهُ عنِ القلوبِ كما يزلُّ القَطْرُ عنِ الصفا)[3] .

وأنشدوا[4] : [من البسيط]

يَا وَاعِظَ ٱلنَّاسِ قَدْ أَصْبَحْتَ مُتَّهَماً ... إِذْ عِبْتَ مِنْهُمْ أُمُوراً أَنْتَ تَأْتِيهَا

أَصْبَحْتَ تَنْصَحُهُمْ بِٱلْوَعْظِ مُجْتَهِداً ... فَٱلْمُوبِقَاتُ لَعَمْرِي أَنْتَ جانِيها

تَعِيبُ دُنْيا وَناساً راغِبِينَ بِها ... وَأَنْتَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ رَغْبَةً فِيها

وقال آخرُ[5] : [من الكامل]

لاَ تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ : (مررتُ بحَجَرٍ مكتوبٍ عليهِ : اقلبني . . تعتبرْ ، فقلبتُهُ ، فإذا عليهِ مكتوبٌ : أنتَ بما تعلَمُ لا تعملُ ، فكيفَ تطلبُ علْمَ ما لمْ تعلَمْ ؟!)[6] .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٤) .

(٢) أخرج بنحوه ابن عساكر في « تاريخه » (٥١/ ١٣٧ـ ١٣٨) .

(٣) رواه الخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (٩٧) .

(٤) البيت الأول لأبي العتاهية في «ديوانه» (ص٤٢٥) ، ولم نقف على نسبة البيتين الأخيرين.

(٥) البيت لأبي الأسود الدؤلي في « ديوانه » (ص٤٠٤)، وانظر «خزانة الأدب» (٨/ ٥٦٤).

(٦) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ٣٥٨) بنحوه .

وقالَ ابنُ السماكِ رحمهُ اللهُ : (كمْ مِنْ مذكِّرٍ بالله ناسٍ للهِ ، وكمْ منْ مخوِّفٍ باللهِ جريءٌ على اللهِ ، وكمْ منْ مقرِّبٍ إلى اللهِ بعيدٌ منَ اللهِ ، وكمْ منْ داعٍ إلى اللهِ فارٌّ منَ اللهِ ، وكمْ منْ تالٍ لكتابِ اللهِ منسلخٌ منْ آياتِ اللهِ !)[1] .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ : (لقدْ أعربْنا في كلامِنا فلمْ نلحَنْ ، ولحنَّا في أعمالِنا فلمْ نعربْ)[2] .

وقالَ الأوزاعيُّ : (إذا جاءَ الإعرابُ . . ذهبَ الخشوعُ)[3] .

وروىٰ مكحولٌ عَنْ عبدِ الرحمٰنِ بنِ غَنْمٍ أنَّهُ قالَ : حدَّثني عشرةٌ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالُوا : كنَّا ندرسُ العلمَ في مسجدِ قُباءَ ، إذْ خرجَ علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « تَعَلَّمُوا ما شئتُمْ أنْ تَعَلَّمُوا ، فلنْ يأْجُرَكُمُ اللهُ حتَّىٰ تعملُوا »[4] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مثلُ الذي يتعلَّمُ العلْمَ ولا يعملُ بهِ كمثلِ امرأةٍ زنتْ في السرِّ فحمَلَتْ ، فظهرَ حملُها فافتضحتْ ، فكذلكَ مَنْ لا يعملُ بعلمِهِ يفضحُهُ اللهُ تباركَ وتعالىٰ يومَ القيامةِ علىٰ رؤوسِ الأشهادِ)[5] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ٤٥١) .
(٢) رواه الخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (١٥١) بنحوه .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٦٦) بنحوه .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٣٦) ، والخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (٨) ، وأوقفه الدارمي في « سننه » (٢٦٦) علىٰ معاذ رضي الله عنه .
(٥) نسبه الحافظ الزبيدي لصاحب « القوت » نقلاً .

وقال معاذٌ رحمهُ اللهُ : (احذروا زَلَّةَ العالِمِ ؛ لأنَّ قدرَهُ عندَ الخلْقِ عظيمٌ فيتبعونَهُ علىٰ زلَّتِهِ) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا زلَّ العالِمُ . . زلَّ بزلَّتِهِ عالَمٌ مِنَ الخلقِ)[1] .

وقالَ : (ثلاثٌ بهنَّ ينهدمُ الزمانُ : إحداهنَّ زلَّةُ العالِمِ)[2] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (سيأتي على الناسِ زمانٌ تملُحُ فيهِ عذوبةُ القلوبِ ، فلا ينتفعُ يومئذٍ بالعلمِ عالمُهُ ولا متعلِّمُهُ ، فتكونُ قلوبُ علمائِهِمْ مثلَ السباخِ مِنْ ذواتِ الملْحِ ، ينزلُ عليها قطْرُ السماءِ فلا يوجدُ لها عذوبةٌ ، وذلكَ إذا مالتْ قلوبُ العلماءِ إلىٰ حبِّ الدنيا وإيثارِها على الآخرةِ ، فعندَ ذلكَ يسلبُها اللهُ تعالىٰ ينابيعَ الحكمةِ ، ويطفىءُ مصابيحَ الهدىٰ مِنْ قلوبِهِمْ ، فيخبرُكَ عالمُهُمْ حينَ تلقاهُ أنَّهُ يخشى اللهَ بلسانِهِ والفجورُ بيِّنٌ في عملِهِ ، فما أخصبَ الألسنَ يومئذٍ وما أجدبَ القلوبَ ! فواللهِ الذي لا إلـٰهَ إلا هوَ ؛ ما ذلكَ إلا لأنَّ المعلمينَ علَّموا لغيرِ اللهِ ، والمتعلِّمينَ تعلَّموا لغيرِ اللهِ تعالىٰ)[3] .

وفي الإنجيلِ مكتوبٌ : (لا تطلبوا علمَ ما لمْ تعلموا حتَّىٰ تعملوا بما علِمتُمْ)[4] .

وقالَ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّكمْ في زمانٍ مَنْ تركَ فيهِ عُشرَ ما يعلمُ . . هلكَ ،

---

(١) روىٰ بنحوه علىٰ لسان سيدنا عيسىٰ عليه السلام ابنُ المبارك في « الزهد » (١٤٧٤) .
(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٨٦٧) .
(٣) انظر « الإتحاف » (١/ ٣٧٤) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٣٨) .

وسيأتي زمانٌ مَنْ عملَ فيهِ بعُشْرِ ما يعلَمُ . . نجا، وذلكَ لكثرةِ البطَّالينَ)[1].

واعلمْ : أنَّ مثلَ العالمِ مثلُ القاضي ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « القضاةُ ثلاثةٌ : قاضٍ قَضَىٰ بالحقِّ وهوَ يعلمُ ، فذاكَ في الجنةِ ، وقاضٍ قَضَىٰ بالجورِ وهوَ يعلمُ أوْ لا يعلمُ ، فهوَ في النارِ ، وقاضٍ قضىٰ بغيرِ ما أمرَ اللهُ بهِ ، فهوَ بالنارِ »[2] .

وقالَ كعبٌ رحمهُ اللهُ : (يكونُ في آخرِ الزمانِ علماءُ يزهِّدونَ الناسَ في الدنيا ولا يزهدونَ ، ويخوِّفونَ الناسَ ولا يخافونَ ، وينهَوْنَ عنْ غشيانِ الولاةِ ويأتونَهُمْ ، ويؤثرونَ الدنيا على الآخرةِ ، يأكلونَ بألسنتِهِمْ ، يقرِّبونَ الأغنياءَ دونَ الفقراءِ ، يتغايرونَ على العلمِ كما تتغايرُ النساءُ على الرجالِ ، يغضبُ أحدُهُمْ علىٰ جليسِهِ إذا جالسَ غيرَهُ)[3] ، أولئكَ الجبَّارونَ أعداءُ الرحمـٰنِ .

وقدْ رُوِيَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ الشيطانَ ربَّما يسبقُكُمْ بالعلمِ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : « يقولُ : اطلبِ العلمَ ولا تعملْ حتَّىٰ تعلمَ ، فلا يزالُ للعلمِ قائلاً وللعملِ مسوِّفاً حتَّىٰ يموتَ وما عملَ »[4] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٣٨) ، وروي مرفوعاً كذلك كما في « الترمذي » (٢٢٦٧) .
(٢) رواه الترمذي (١٣٢٢) ، وأبو داوود (٣٥٧٣) ، وابن ماجه (٢٣١٥) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٤٠) .
(٤) رواه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/ ١٣٢) بنحوه ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٣٧٦) .

وقالَ سَرِيٌّ السقَطيُّ : (اعتزلَ للتعبُّدِ رجلٌ كانَ حريصاً علىٰ طلبِ علْمِ الظاهرِ ، فسألتُهُ فقالَ : رأيتُ في النومِ قائلاً يقولُ لي : إلىٰ كمْ تضيِّعُ العلمَ ضيَّعَكَ اللهُ ! فقلتُ : إنِّي لأحفظُهُ ، فقالَ : إنَّ حفظَ العلمِ العملُ بهِ ، فتركتُ الطلبَ وأقبلتُ على العملِ)[1] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ليسَ العلمُ بكثرةِ الروايةِ ، إنَّما العلمُ الخشيةُ)[2] .

وقالَ الحسنُ : (اعلموا ما شئتُمْ أنْ تعلموا ، فواللهِ ؛ لا يأجرُكُمُ اللهُ حتَّىٰ تعملوا ، فإنَّ السفهاءَ همتُهُمُ الروايةُ ، والعلماءَ همتُهُمُ الرعايةُ)[3] .

وقالَ مالكٌ رحمهُ اللهُ : (إنَّ طلبَ العلمِ لحسنٌ ، وإنَّ نشرَهُ لحسنٌ إذا صحَّتْ فيهِ النيةُ ، ولكنِ انظرْ ما يلزمُكَ مِنْ حينِ تصبحُ إلىٰ حينِ تمسي ، فلا تؤثرنَّ عليهِ شيئاً)[4] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (أُنزلَ القرآنُ ليُعملَ بهِ ، فاتخذتُمْ دراستَهُ عملاً ، وسيأتي قومٌ يثقفونَهُ مثلَ القناةِ ، ليسوا بخيارِكُمْ ، والعالِمُ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٣٣) .
(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٨٦٧) .
(٣) روي هـذا الخبر مرفوعاً وموقوفاً ومقطوعاً ، وانظر « القوت » (١/ ١٣٣) ، و« الإتحاف » (١/ ٣٧٧) .
(٤) ما رواه الأكابر عن مالك (٣٧) ، وانظر « قوت القلوب » (١/ ١٣٥) ، و« حلية الأولياء » (٦/ ٣١٩) .

الذي لا يعملُ كالمريضِ الذي يصفُ الدواءَ ، والجائع الذي يصفُ لذائذَ الأطعمةِ ولا يجدُها ، وفي مثلِهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾)[1] .

وفي الخبرِ : « مِمَّا أخافُ علىٰ أُمتي زَلَّةُ عالمٍ وجدالُ منافقٍ في القرآنِ »[2] .

ومنها : أنْ تكونَ عنايتُهُ بتحصيلِ العلمِ النافعِ في الآخرةِ : المرغِّبِ في الطاعةِ ، مجتنباً للعلوم التي يقلُّ نفعُها ، ويكثرُ فيها الجدالُ والقيلُ والقالُ .

فمثالُ مَنْ يعرضُ عَنْ علْمِ الأعمالِ ويشتغلُ بالجدالِ مثالُ رجلٍ مريضٍ بهِ عللٌ كثيرةٌ ، وقدْ صادفَ طبيباً حاذقاً في وقتٍ ضيِّقٍ يُخشىٰ فواتُهُ ، فاشتغلَ بالسؤالِ عنْ خاصيَّةِ العقاقيرِ والأدويةِ وغرائبِ الطبِّ ، وتركَ مهمَّهُ الذي هوَ مؤاخذٌ بهِ ، وذلكَ محضُ السفهِ .

وقدْ رُوِيَ : أنَّ رجلاً جاءَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : علِّمني مِنْ غرائبِ العلْمِ ، فقالَ لهُ : « ما صنعتَ في رأسِ العلمِ ؟ » فقالَ : وما رأسُ العلمِ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هلْ عرفتَ الربَّ تعالىٰ؟ » قالَ : نعمْ ، قالَ : « فما صنعتَ في حقِّهِ ؟ » قالَ : ما شاءَ اللهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هل عرفتَ الموتَ ؟ » قالَ : نعمْ ، قال : « فما أعْدَدْتَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤٥) ، ورواه بنحوه الآجريُّ في « أخلاق حملة القرآن » (٣١) عن الفضيل بن عياض .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٣٨) .

لهُ ؟ » قالَ : ما شاءَ اللهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اذهبْ فأحْكِمْ ما هنالكَ ، ثمَّ تعالَ . . نُعَلِّمْكَ مِنْ غرائبِ العلمِ »[1] .

بلْ ينبغي أنْ يكونَ التعلُّمُ مِنْ جنسِ ما رُويَ عن حاتِمٍ الأصمِّ تلميذِ شقيقٍ البلخيِّ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّهُ قالَ لهُ شقيقٌ : منذُ كمْ صحبتني ؟ قالَ حاتِمٌ : منذُ ثلاثٍ وثلاثينَ سنةً ، قالَ : فما تعلمتَ منِّي في هـٰذهِ المدَّةِ ؟ قالَ : ثمانُ مسائلَ ، قالَ شقيقٌ لهُ : إنّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ، ذهبَ عمري معكَ ولمْ تتعلَّمْ إلا ثمانيَ مسائلَ ! قالَ : يا أستاذُ ؛ لمْ أتعلَّمْ غيرَها ، وإني لا أحبُّ أنْ أكذبَ ، فقالَ : هاتِ هـٰذهِ الثمانيَ مسائلَ حتَّىٰ أسمعَها ، قالَ حاتِمٌ :

أمَّا الأولىٰ : نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ ، فرأيتُ كلَّ واحدٍ يحبُّ محبوباً فهوَ معَ محبوبِهِ إلى القبرِ ، فإذا وصلَ إلى القبرِ . . فارقَهُ ، فجعلتُ الحسناتِ محبوبي ، فإذا دخلتُ القبرَ . . دخلَ محبوبي معي .

فقالَ : أحسنتَ يا حاتِمُ ، **فما الثانيةُ** ؟ فقالَ : نظرتُ في قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ ، فعلمتُ أنَّ قولَهُ سبحانهُ هوَ الحقُّ ، فأجهدتُ نفسي في دفعِ الهوىٰ حتَّى استقرَّتْ علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ .

الثالثةُ : أنِّي نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ ، فرأيتُ كلَّ مَنْ معَهُ شيءٌ لهُ قيمةٌ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٤) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢٢٢) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٣٧٩) .

ومقدارٌ عندَهُ رفعَهُ وحفِظَهُ ، ثمَّ نظرتُ في قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ ، فكلَّما وقعَ معي شيءٌ لهُ قيمةٌ ومقدارٌ . . وجهتُهُ إلى اللهِ ليبقىٰ لي عندَهُ محفوظاً .

الرابعةُ : أنِّي نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ ، فرأيتُ كلَّ واحدٍ منهُمْ يرجعُ إلى المالِ والحسبِ والشرفِ والنسبِ ، فنظرتُ فيها فإذا هيَ لا شيءَ ، ثمَّ نظرتُ إلىٰ قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ، فعملتُ في التقوىٰ حتَّىٰ أكونَ عندَ اللهِ كريماً .

الخامسةُ : نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ وهُمْ يطعنُ بعضُهُمْ في بعضٍ ويلعنُ بعضُهُمْ بعضاً ، وأصلُ هـٰذا كلِّه الحسدُ ، ثم نظرتُ إلىٰ قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، فتركتُ الحسدَ واجتنبتُ الخلقَ ، وعلمتُ أنَّ القسْمَ مِنْ عندِ اللهِ سبحانَهُ ، فتركتُ عداوةَ الخلْقِ عنِّي .

السادسةُ : نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ يبغي بعضُهُمْ علىٰ بعضٍ ، ويقاتلُ بعضُهُمْ بعضاً ، فرجعتُ إلىٰ قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ ، فعاديتُهُ وحدَهُ ، واجتهدتُ في أخْذِ حذري منهُ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ شهدَ عليهِ أنَّهُ عدوٌّ لي ، فتركتُ عداوةَ الخلْقِ غيرَهُ .

السابعةُ : نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ ، فرأيتُ كلَّ واحدٍ منهُمْ يطلبُ هـٰذهِ الكسرةَ ، فيذلُّ نفسَهُ فيها ، ويدخلُ فيما لا يحلُّ لهُ ، ثمَّ نظرتُ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ، فعلمتُ أنِّي واحدٌ مِنْ

هـٰذهِ الدوابِّ التي على اللهِ رزقُها ، فاشتغلتُ بما للهِ تعالىٰ عليَّ ، وتركتُ ما لي عندَهُ .

الثامنةُ : نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ ، فرأيتُهُمْ كلَّهُمْ متوكِّلينَ علىٰ مخلوقٍ ؛ هـٰذا علىٰ ضيعَتِهِ ، وهـٰذا علىٰ تجارتِهِ ، وهـٰذا علىٰ صناعتِهِ ، وهـٰذا علىٰ صحَّةِ بدنِهِ ، وكلُّ مخلوقٍ متوكِّلٌ علىٰ مخلوقٍ مثلِهِ ، فرجعتُ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ﴾ ، فتوكلتُ على اللهِ عزَّ وجلَّ ، فهوَ حسبي .

قالَ شقيقٌ : يا حاتِمُ ؛ وفَّقَكَ اللهُ تعالىٰ ، فإنِّي نظرتُ في علومِ التوراةِ والإنجيلِ والزبورِ والقرآنِ العظيمِ ، فوجدْتُ جميعَ أنواعِ الخيرِ والديانةِ ، وهيَ تدورُ علىٰ هـٰذهِ الثمانِ مسائلَ ، فمَنِ استعملَها . . فقدِ استعملَ الكتبَ الأربعةَ[1] .

فهـٰذا الفنُّ مِنَ العلمِ لا يهتمُّ بإدراكِهِ والتفطُّنِ لهُ إلاَّ علماءُ الآخرةِ ، أمَّا علماءُ الدنيا . . فيشتغلونَ بما يتيسَّرُ بهِ اكتسابُ المالِ والجاهِ ، ويهملونَ أمثالَ هـٰذهِ العلومِ التي بها بعثَ اللهُ الأنبياءَ كلَّهُمْ عليهِمُ السلامُ .

وقالَ الضحَّاكُ بنُ مزاحمٍ : (أدركتُهُمْ وما يتعلَّمُ بعضُهُمْ مِنْ بعضٍ إلا الورعَ ، وهمُ اليومَ ما يتعلَّمونَ إلاَّ الكلامَ)[2] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ٧٩) بنحوها .

(٢) قوت القلوب (١/ ٩٦) .

ومنها : أَنْ يكونَ غيرَ مائلٍ إلى الترفُّهِ في المطعمِ والمشربِ ، والتنعمِ في الملبسِ ، والتجمُّلِ في الأثاثِ والمسكنِ : بلْ يؤثرُ الاقتصادَ في جميعِ ذلكَ ، ويتشبَّهُ فيهِ بالسلفِ رحمهُمُ اللهُ تعالىٰ ، ويميلُ إلى الاكتفاءِ بالأقلِّ في جميعِ ذلكَ ، وكلَّما زادَ إلىٰ طرفِ القلَّةِ ميلُهُ . . ازدادَ مِنَ اللهِ قربُهُ ، وارتفعَ في علماءِ الآخرةِ حزبُهُ .

ويشهدُ لذلكَ ما حُكِيَ عنْ أبي عبدِ اللهِ الخوَّاصِ وكانَ مِنْ أصحابِ حاتمٍ الأصمِّ ، قالَ : دخلتُ معَ حاتمٍ الرَّيِّ ومعنا ثلاثُ مئةٍ وعشرونَ رجلاً نريدُ الحجَّ وعليهِمُ الزُّرَنْبانِقاتُ[1] ، وليسَ معَهُمْ جِرابٌ ولا طعامٌ ، فدخلْنا علىٰ رجلٍ مِنَ التجَّارِ متقشِّفٍ يحبُّ المساكينَ ، فأضافَنا تلكَ الليلةَ ، فلمَّا كانَ مِنَ الغدِ . . قالَ لحاتمٍ : ألكَ حاجةٌ ؟ فإنِّي أريدُ أنْ أعودَ فقيهاً لنا هوَ عليلٌ ، قالَ حاتمٌ : عيادةُ المريضِ فيها فضلٌ ، والنظرُ إلى الفقيهِ عبادةٌ ، وأنا أيضاً أجيءُ معكَ ، وكانَ العليلُ محمدَ بنَ مقاتلٍ قاضيَ الرَّيِّ ، فلمَّا جئنا إلى البابِ . . فإذا هوَ يشرقُ حسناً ، فبقيَ حاتمٌ متفكراً يقولُ : بابُ عالمٍ علىٰ هٰذهِ الحالِ !

ثمَّ أذنَ لهُمْ فدخلوا ، فإذا دارٌ حسناءُ قوراءُ ، واسعةٌ نزهَةٌ ، وإذا بزَّةٌ وأمتعةٌ وستورٌ ، فبقيَ حاتمٌ متفكِّراً ، ثمَّ دخلوا إلى المجلسِ الذي هوَ فيهِ ، فإذا بفُرُشٍ وطيئَةٍ وهوَ راقدٌ عليها ، وعندَ رأسِهِ غلامٌ وبيدِهِ مِذبَّةٌ ، فقعدَ الزائرُ عندَ رأسِهِ وسألَ عنْ حالِهِ وحاتمٌ قائمٌ ، فأومأَ إليهِ ابنُ مقاتلٍ أنِ

---

(١) الزرنبانقات : جُبَب الصوف .

اجلسْ ، فقالَ: لا أجلسُ ، فقالَ : لعلَّ لكَ حاجةً ، قالَ : نعمْ ، فقالَ : وما هيَ ؟ قال : مسألةٌ أسألُكَ عنها ، قال: سلني، قالَ : قمْ فاستوِ جالساً حتَّىٰ أسألَكَ ، فاستوىٰ جالساً .

قالَ حاتمٌ : علمُكَ هـٰذا مِنْ أينَ أخذتَهُ ؟ قالَ : مِنَ الثقاتِ حدَّثوني بهِ ، قالَ : عمَّنْ ؟ قالَ : عَنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ : وأصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عمَّنْ ؟ قالَ : عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ : ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عمَّنْ ؟ قالَ : عَنْ جبريلَ عليهِ السلامُ عَنِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ .

قالَ حاتمٌ : ففيما أدّاهُ جبريلُ عليهِ السلامُ عَنِ اللهِ تعالىٰ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأدّاهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ أصحابِهِ ، وأصحابُهُ إلى الثقاتِ ، وأدَّاهُ الثقاتُ إليكَ : هلْ سمعتَ فيهِ : مَنْ كانَ في دارِهِ أميراً وكانتْ سعتُهُ أكثرَ . كانَ لهُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ المنزلةُ أكبرَ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فكيف سمعتَ ؟ قالَ : سمعتُ : أنَّهُ مَنْ زهدَ في الدنيا ورغبَ في الآخرةِ وأحبَّ المساكينَ وقدَّمَ لآخرتِهِ . كانتْ لهُ عندَ اللهِ المنزلةُ .

قالَ لهُ حاتمٌ : فأنتَ بمنِ اقتديتَ ؟ أبالنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابِهِ رضيَ اللهُ عنهُمْ والصالحينَ ، أمْ بفرعونَ ونمرودَ أوَّلِ مَنْ بَنَىٰ بالجصِّ والآجرِّ ؟!

يا علماءَ السوءِ ؛ مثلُكُمْ يراهُ الجاهلُ المتكالبُ على الدنيا الراغبُ فيها

فيقولُ : العالمُ علىٰ هـٰذهِ الحالةِ ، لا أكونُ أنا شرّاً منهُ ! وخرجَ مِنْ عندِهِ .

فازدادَ ابنُ مقاتلٍ مرضاً .

وبلغَ أهلَ الرَّيِّ ما جرىٰ بينَهُ وبينَ ابنِ مقاتلٍ ، فقالوا لهُ : إنَّ الطَّنافِسيَّ بقزوينَ أكثرُ توسُّعاً منهُ ، فسارَ حاتمٌ إليهِ متعمداً ، فدخلَ عليهِ ، فقالَ : رحمَكَ اللهُ ؛ أنا رجلٌ أعجميٌّ أحبُّ أنْ تعلِّمَني مبتدأَ ديني ومفتاحَ صلاتي كيفَ أتوضأُ للصلاةِ ، قال : نعمْ وكرامةً ، يا غلامُ ؛ هاتِ إناءً فيه ماءٌ ، فأُتيَ بهِ ، فقعدَ الطنافسيُّ فتوضَّأَ ثلاثاً ثلاثاً ثمَّ قالَ : هـٰكذا فتوضَّأْ .

فقالَ حاتمٌ : مكانَكَ حتَّىٰ أتوضَّأَ بينَ يديكَ فيكونَ أوكدَ لما أريدُ ، فقامَ الطنافسيُّ وقعدَ حاتمٌ فتوضأَ ، ثمَّ غسلَ ذراعيهِ أربعاً أربعاً ، فقالَ لهُ الطنافسيُّ : يا هـٰذا ؛ أسرفتَ ، قالَ لهُ حاتمٌ : في ماذا ؟ قالَ : غسلتَ ذراعيكَ أربعاً .

فقالَ حاتمٌ : يا سبحانَ اللهِ العظيمِ ! أنا في كفٍّ مِنْ ماءٍ أسرفْتُ ، وأنتَ في جميعِ هـٰذا كلِّهِ لمْ تسرفْ ؟!

فعلمَ الطنافسيُّ أنَّهُ قصدَ ذلكَ دونَ التعلُّمِ ، فدخلَ إلى البيتِ فلمْ يخرجْ إلى الناسِ أربعينَ يوماً .

فلمَّا دخلَ حاتمٌ بغدادَ . . اجتمعَ إليهِ أهلُ بغدادَ ، فقالوا : يا أبا عبدِ الرحمـٰنِ ؛ أنتَ رجلٌ ألْكنُ أعجميٌّ وليسَ يكلِّمُكَ أحدٌ إلا قطعتَهُ !

قالَ : معي ثلاثُ خصالٍ بهنَّ أظهرُ علىٰ خصمي : أفرحُ إذا أصابَ

خصمِي ، وأحزنُ إذا أخطأَ ، وأحفظُ نفسي ألاَّ أجهلَ عليهِ .

فبلغَ ذلكَ أحمدَ ابنَ حنبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : سبحانَ اللهِ ، ما أعقلَهُ ! قوموا بنا إليهِ .

فلما دخلوا عليهِ . . قالَ لهُ : يا أبا عبدِ الرحمـٰنِ ؛ ما السلامةُ مِنَ الدنيا ؟ قال : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ لا تسلَمُ مِنَ الدنيا حتَّىٰ يكونَ معكَ أربعُ خصالٍ : تغفرُ للقومِ جهلَهُمْ ، وتمنعُ جهلَكَ منهُمْ ، وتبذلُ لهُمْ شيئَكَ ، وتكونُ مِنْ شيئِهِمْ آيساً ، فإذا كنتَ هـٰكذا . . سلمتَ .

ثمَّ سارَ إلى المدينةِ ، فاستقبلَهُ أهلُ المدينةِ ، فقالَ : يا قومِ ؛ أيَّةُ مدينةٍ هـٰذهِ ؟ قالوا : مدينةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ : فأينَ قصْرُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ أصلِّيَ فيهِ ؟ قالوا : ما كانَ لهُ قصرٌ ، إنَّما كانَ لهُ بيتٌ لاطِىءٌ بالأرضِ ، قالَ : فأينَ قصورُ أصحابِهِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ؟ قالوا : ما كانَ لهمْ قصورٌ ، إنَّما كانَ لهُمْ بيوتٌ لاطئَةٌ بالأرضِ .

فقالَ حاتمٌ : يا قومُ ؛ فهـٰذهِ مدينةُ فرعونَ !

فأخذوهُ وذهبوا بهِ إلى السلطانِ ، وقالوا : هـٰذا العجميُّ يقولُ : هـٰذهِ مدينةُ فرعونَ ، قالَ الوالي : ولِمَ ذلكَ ؟ قالَ حاتمٌ : لا تعجَلْ عليَّ ، أنا رجلٌ أعجميٌّ غريبٌ ، دخلتُ البلدَ فقلتُ : مدينةُ مَنْ هـٰذهِ ؟ فقالوا : مدينةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقلتُ : فأينَ قصرُهُ . . . وقصَّ القصَّةَ ، ثمَّ قالَ : وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ، فأنتمْ

بمَنْ تأسَّيتُمْ ؟ أبرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، أمْ بفرعونَ أوَّلِ مَنْ بنىٰ بالجصِّ والآجرِّ ؟! فخلوا عنهُ وتركوه[1] .

فهـٰذهِ حكايةُ حاتِمِ الأصمِّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ ، وسيأتي مِنْ سيرةِ السلفِ في البذاذةِ وتركِ التجمُّلِ ما يشهدُ لذلكَ في مواضعِهِ .

والتحقيقُ فيهِ : أنَّ التزيُّنَ بالمباحِ ليسَ بحرامٍ ، ولكنَّ الخوضَ فيهِ يوجبُ الأنْسَ بهِ حتَّىٰ يشقَّ تركُهُ ، واستدامةُ الزينةِ لا تمكنُ إلا بمباشرةِ أسبابٍ في الغالبِ يلزمُ مِنْ مراعاتِها ارتكابُ المعاصي ؛ مِنَ المداهنةِ ، ومراعاةِ الخلْقِ ومراءاتِهِمْ ، وأمورٍ أخرَ هيَ محظورةٌ ، والحزمُ اجتنابُ ذلكَ ؛ لأنَّ مَنْ خاضَ في الدنيا لا يسلمُ منها ألْبتةَ ، ولوْ كانتِ السلامةُ مبذولةً معَ الخوضِ فيها . . لكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يبالغُ في تركِ الدنيا ، حتَّىٰ نزعَ القميصَ المُطَرَّزَ بالعَلَمِ[2] ، ونزعَ خاتمَ الذهبِ في أثناءِ الخطبةِ[3] ، إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا سيأتي بيانُهُ .

وقد حُكِيَ أنَّ يحيىٰ بنَ يزيدَ النوفليَّ كتبَ إلىٰ مالكِ بنِ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا :

---

(١) رواها أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ٨٠) .

(٢) فقد روى البخاري (٣٧٣) ، ومسلم (٥٥٦) واللفظ له : أن النبي صلى الله عليه وسلم صلىٰ في خميصة لها أعلام وقال : « شغلتني أعلام هـٰذه ، فاذهبوا بها إلىٰ أبي جهم وأتوني بأنبجانية » .

(٣) ففي « البخاري » (٥٨٦٧) ، و« مسلم » (٢٠٩١) : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس خاتماً من ذهب ، فنبذه فقال : « لا ألبسه أبداً » فنبذ الناس خواتيمهم .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصَلَّى اللهُ على رَسُولِه مُحَمَّدٍ في الأَولينَ والآخِرينَ

مِنْ يحيىٰ بنِ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ إلىٰ مالكِ بنِ أنسٍ .

أمَّا بعدُ :

فقدْ بلغني أنَّكَ تلبسُ الدِّقاقَ ، وتأكُلُ الرُّقاقَ[1] ، وتجلسُ على الوطاءِ ، وتجعلُ علىٰ بابِكَ حاجباً ، وقدْ جلستَ مجلسَ العلمِ ، وضُرِبَتْ إليكَ المطيُّ ، وارتحلَ إليكَ الناسُ ، واتخذوكَ إماماً ، ورضوا بقولِكَ ، فاتقِ اللهَ تعالىٰ يا مالكُ ، وعليكَ بالتواضعِ .

كتبتُ إليكَ بالنصيحةِ منِّي كتاباً ما اطلعَ عليهِ إلا اللهُ تعالىٰ ، والسلامُ .

فكتبَ إليهِ مالكٌ :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ

مِنْ مالكِ بنِ أنسٍ إلىٰ يحيىٰ بنِ يزيدَ ، سلامُ اللهِ عليكَ .

أمَّا بعدُ :

فقدْ وصلَ إليَّ كتابُكَ ، فوقعَ منِّي موقعَ النصيحةِ في الشفقةِ والأدبِ ، أمتعَكَ اللهُ بالتقوىٰ ، وجزاكَ بالنصيحةِ خيراً ، وأسألُ اللهَ تعالى التوفيقَ ،

---

(١) **الدقاق** : الثياب الرفيعة ، وهي دق الثياب من كتان وقطن ، **والرقاق** : بضم الراء ، الخبز المرقق الذي عجن من دقيق منخول . « إتحاف » (١/ ٣٨٥) .

ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ .

فأمَّا ما ذكرتَ لي أنِّي آكلُ الرُّقاقَ وألبسُ الدِّقاقَ وأحتجبُ وأجلسُ على الوطاء . . فنحنُ نفعلُ ذلكَ ونستغفرُ اللهَ تعالىٰ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ ، وإنِّي لأعلمُ أنَّ تركَ ذلكَ خيرٌ مِنَ الدخولِ فيهِ ، ولا تدعْنا منْ كتابِكَ ، فلسنا ندعُكَ مِنْ كتابِنا ، والسلامُ .

فانظرْ إلىٰ إنصافِ مالكٍ إذِ اعترفَ أنَّ تركَ ذلكَ خيرٌ منَ الدخولِ فيهِ ، وأفتىٰ بأنَّهُ مباحٌ ، وقدْ صدقَ فيهما جميعاً .

ومثلُ مالكٍ في منصبِهِ إذا سمحتْ نفسُهُ بالإنصافِ والاعترافِ في مثلِ هـٰذهِ النصيحةِ . . فتقوىٰ أيضاً نفسُهُ على الوقوفِ علىٰ حدودِ المباحِ ، حتَّىٰ لا يحملُهُ ذلكَ على المراءاةِ والمداهنةِ ، والتجاوزِ إلى المكروهاتِ ، وأمَّا غيرُهُ . . فلا يقدرُ عليهِ .

فالتعريجُ على التنعُّمِ في المباحِ خطرٌ عظيمٌ ، وهوَ بعيدٌ مِنَ الخوفِ والخشيةِ ، وخاصِّيَّةُ علماءِ اللهِ تعالىٰ الخشيةُ ، وخاصِّيَّةُ الخشيةِ التباعدُ مِنْ مظانِّ الخطرِ .



ومنها : أنْ يكونَ منقبضاً عنِ السلاطينِ : فلا يدخلُ عليهِمْ ألبتةَ ما دامَ يجدُ إلى الفرارِ عنهُمْ سبيلاً ، بلْ ينبغي أنْ يحترزَ مِنْ مخالطتِهِمْ وإنْ جاؤُوا إليهِ ؛ فإنَّ الدنيا حلوةٌ خَضِرَةٌ ، وزمامُها بأيدي السلاطينِ ، والمخالطُ لهُمْ

لا يخلو عَنْ تكلُّفٍ في طلبِ مرضاتِهِمْ واستمالةِ قلوبِهِمْ معَ أنَّهُمْ ظلَمةٌ ، ويجبُ علىٰ كلِّ متديِّنٍ الإنكارُ عليهِمْ ، وتضييقُ صدورِهِمْ بإظهارِ ظلمِهِمْ وتقبيحِ فعلِهِمْ .

فالداخلُ عليهِمْ إمَّا أنْ يلتفتَ إلىٰ تجمُّلِهِمْ فيزدريَ نعمةَ اللهِ عليهِ ، أوْ يسكتَ عنِ الإنكارِ عليهِمْ فيكونَ مداهناً لهُمْ ، أوْ يتكلَّفَ في كلامِهِ كلاماً لمرضاتِهِمْ وتحسينِ حالِهِمْ وذلكَ هوَ البَهْتُ الصريحُ ، أوْ أنْ يطمعَ في أنْ ينالَ مِنْ دنياهُمْ ، وذلكَ هوَ السُّحْتُ .

وسيأتي في كتابِ الحلالِ والحرامِ ما يجوزُ أنْ يُؤخذَ مِنْ أموالِ السلاطينِ وما لا يجوزُ مِنَ الإدرارِ والجوائزِ وغيرِها .

وعلى الجملةِ : فمخالطتُهُمْ مفتاحٌ للشُّرورِ ، وعلماءُ الآخرةِ طريقُهُمُ الاحتياطُ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ بَدَا . . جَفا ـ يعني : مَنْ سكنَ البادِيةَ . . جفا ـ ومَنِ اتبعَ الصيدَ . . غَفَلَ ، ومَنْ أتى السلطانَ . . ٱفتُتِنَ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سيكونُ عليكُمْ أمراءُ تعرفونَ منهمْ وتنكرونَ ، فمَنْ أنكرَ . . فقدْ بَرِيءَ ، ومَنْ كرِهَ . . فقدْ سَلِمَ ، ولكنْ مَنْ رَضِيَ وتابعَ . . أبعدَهُ اللهُ تعالىٰ » ، قيلَ : أفلا نقاتِلُهُمْ؟ قال : « لا ، ما صلَّوا »[2] .

---

(١) رواه أبو داوود (٢٨٥٩) .

(٢) رواه مسلم (١٨٥٤) .

وقالَ سفيانُ : (في جهنَّمَ وادٍ لا يسكنُهُ إلا القُرَّاءُ الزوَّارونَ للملوكِ)[1] .

وقالَ حذيفةُ : إيَّاكُمْ ومواقفَ الفتنِ ، قيلَ : وما هيَ؟ قالَ : أبوابُ الأمراءِ ، يدخلُ أحدُكُمْ على الأميرِ فيصدِّقُهُ بالكذبِ ، ويقولُ فيهِ ما ليسَ فيهِ[2] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العلماءُ أمناءُ الرسلِ علىٰ عبادِ اللهِ تعالىٰ ما لمْ يُخالطوا السلطانَ ، فإذا فعلوا ذلكَ . . فقدْ خانوا الرسلَ ، فاحذروهُمْ واعْتزلُوهُمْ » ، رواهُ أنسٌ[3] .

وقيلَ للأعمشِ : لقدْ أحييتَ العلمَ لكثرةِ مَنْ يأخُذُهُ عنكَ ، فقالَ : لا تعجلوا ؛ ثلثٌ يموتونَ قبلَ الإدراكِ ، وثلثٌ يلزمونَ أبوابَ السلاطينِ فهُمْ شرُّ الخلقِ ، والثلثُ الباقي لا يفلحُ منهُمْ إلا القليلُ[4] .

ولذلكَ قالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (إذا رأيتمُ العالمَ يغشى الأمراءَ فاحترزوا منهُ ؛ فإنَّه لصٌّ)[5] .

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٠٩٧) .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٣١٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٧٧) .

(٣) رواه العقيلي كما في « جامع بيان العلم وفضله » (١١١٣) ، والديلمي كما في « مسند الفردوس » (٤٢١٠) ، وقال الحافظ المناوي في « فيض القدير » (٤/ ٣٨٣) نقلاً عن السيوطي : (قوله ـ أي ابن الجوزي ـ : « موضوع » ممنوع ، وله شواهد فوق الأربعين ، فنحكم له علىٰ مقتضىٰ صناعة الحديث بالحسن) .

(٤) أورده ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١١٥) .

(٥) وهـٰذا الذي ذكره المصنف عن سعيد بن المسيب فقد ورد مرفوعاً عن أبي هريرة بلفظ : =

وقالَ الأوزاعيُّ : (ما منْ شيءٍ أبغضَ إلى اللهِ تعالىٰ منْ عالمٍ يزورُ عاملاً)[1] .

وقالَ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرارُ العلماءِ الذينَ يأتونَ الأمراءَ ، وخيارُ الأمراءِ الذينَ يأتونَ العلماءَ »[2] .

وقالَ مكحولٌ الدمشقيُّ رحمهُ اللهُ : (مَنْ تعلَّمَ القرآنَ وتفقَّهَ في الدينِ ثمَّ صحبَ السلطانَ تملُّقاً إليهِ وطمعاً فيما لديهِ . . خاضَ في نارِ جهنَّمَ بعدَدِ خُطاهُ)[3] .

وقالَ سُحنونٌ : (ما أسمجَ بالعالمِ أنْ يُؤتىٰ إلىٰ مجلسِهِ فلا يوجدُ ، فيُسألُ عنهُ ، فيُقالُ : إنَّهُ عندَ الأميرِ !)[4] .

= « إذا رأيتم العالم يخالط السلطان مخالطة كثيرة . . فاعلم أنه لص » أخرجه الديلمي في « مسند الفردوس » (١٠٧٧) . « إتحاف » (١/ ٣٨٩) .

(١) وشاهده من حديث أبي هريرة رفعه ، أخرجه ابن ماجه : « إن أبغض الخلق إلى الله العالم يزور العمال » . « إتحاف » (١/ ٣٨٩) ، وهٰذا الذي ذكره قد رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٢٢) ، والرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (٣/ ٤٥٠) .

(٢) عند ابن ماجه (٢٥٦) : « وإن من أبغض القراء إلى الله الذين يزورون الأمراء » ، وفي « الحلية » (٣/ ٢٤٣) من كلام سلمة بن دينار : (إن خير الأمراء من أحب العلماء ، وإن شر العلماء من أحب الأمراء) .

(٣) وهٰذا قد روي مرفوعاً من حديث معاذ ، أخرجه أبو الشيخ في كتاب « الثواب » له ، وكذا الحاكم في « تاريخه » بلفظ : « إذا قرأ الرجل القرآن وتفقه في الدين ثم أتىٰ باب السلطان تملقاً إليه ، وطمعاً لما في يديه . . خاض بقدر خطاه في نار جهنم » . « إتحاف » (١/ ٣٩٠) .

(٤) ذكره ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١١٧) .

قالَ : وكنتُ أسمعُ أنَّهُ يُقالُ : (إذا رأيتمُ العالمَ يحبُّ الدنيا . . فاتهمُوهُ علىٰ دينِكُمْ) حتَّىٰ جرَّبْتُ ذلكَ ؛ إذْ ما دخلتُ قطُّ علىٰ هـٰذا السلطانِ إلا وحاسبتُ نفسي بعدَ الخروجِ ، فأرىٰ عليها الدَّرَكَ[1] ، وأنتمْ ترَوْنَ ما ألقاهُ بهِ مِنَ الغلظةِ والفظاظةِ وكثرةِ المخالفةِ لهواهُ ، ولودِدتُ أنْ أنجوَ مِنَ الدخولِ عليهِ كفافاً ، معَ أنِّي لا آخذُ منهُ شيئاً ، ولا أشربُ لهُ شربةَ ماءٍ ، ثمَّ قالَ : وعلماءُ زمانِنا شرٌّ مِنْ علماءِ بني إسرائيلَ ؛ يخبرونَ السلطانَ بالرُّخَصِ وبما يوافقُ هواهُ ، ولوْ أخبروهُ بالذي عليهِ وفيهِ نجاتُهُ . . لاستثقلَهُمْ ، وكَرِهَ دخولَهُمْ عليهِ ، وكانَ ذلكَ نجاةً لهُمْ عندَ ربِّهِمْ[2] .

وقالَ الحسنُ : (كانَ فيمنْ كانَ قبلَكُمْ رجلٌ لهُ قِدَمٌ في الإسلامِ وصحبةٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ قالَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ : عنىٰ بهِ سعدَ بنَ أبي وقاصٍ رضيَ اللهُ عنهُ ـ قالَ : وكانَ لا يغشى السلاطينَ ، وينفرُ عنهُمْ ، فقالَ لهُ بنوهُ : يأتي هؤلاءِ مَنْ ليسَ هوَ مثلَكَ في الصحبةِ والقِدَمِ في الإسلامِ ، فلوْ أتيتَهُمْ !

فقالَ : يا بَنِيَّ ؛ آتي جيفةً قدْ أحاطَ بها قومٌ ؟! واللهِ ؛ لئنِ استطعتُ لا شاركتهُمْ فيها .

قالوا : يا أبانا ؛ إذاً نهلِكَ هزالاً .

---

(١) الدرك : التبعة وما يلحق منها .

(٢) ترتيب المدارك (١/ ٣٥٧) .

قالَ : يا بَنِيَّ ؛ لأنْ أموتَ مؤمناً مهزولاً أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أموتَ منافقاً سميناً[1] .

قالَ الحسنُ : (خصمَهُمْ واللهِ ؛ إذْ علِمَ أنَّ التـرابَ يـأكـلُ اللحـمَ والسِمَنَ ، دونَ الإيمانِ)[2] .

وفي هـٰذا إشارةٌ إلىٰ أنَّ الداخلَ على السلطانِ لا يسلَمُ مِنَ النفاقِ ألبتةَ ، وهوَ مضادٌّ للإيمانِ .

وقالَ أبو ذرٍّ لسلمةَ : (يا سلمةُ ؛ لا تغشَ أبوابَ السلاطينِ ؛ فإنَّك لا تصيبُ مِنْ دنياهُمْ شيئاً إلا أصابوا مِنْ دينِكَ أفضلَ منهُ)[3] .

وهـٰذهِ فتنةٌ عظيمةٌ للعلماءِ ، وذريعةٌ صعبةٌ للشيطانِ عليهِمْ ، لا سيما مَنْ لهُ لهجةٌ مقبولةٌ وكلامٌ حلْوٌ ، إذْ لا يزالُ الشيطانُ يُلقي إليهِ أنَّ في وعظِكَ لهُمْ ودخولِكَ عليهِمْ ما يزجرُهُمْ عنِ الظلْمِ ويقيمُ شعائرَ الشرعِ ، إلىٰ أنْ يخيِّلَ إليهِ أنَّ الدخولَ عليهِمْ مِنَ الدينِ ، ثمَّ إذا دخلَ . . لمْ يلبثْ أنْ يتلطَّفَ في الكلامِ ويداهنَ ، ويخوضَ في الثناءِ والإطراءِ ، وفيهِ هلاكُ الدينِ .

---

(١) فلم يزل رضي الله عنه في حال التقشف والصبر حتىٰ لحق بربه معتزلاً في قصره بالعقيق في سنة خمس وخمسين على المشهور ، وحمل على الأعناق ودفن بالبقيع ، وهو آخر العشرة موتاً ، فهو قدوةُ من ابتلي في حاله بالتلوين ، وحجةُ من تحصن بالوحدة والعزلة من التفتين . « إتحاف » (١/ ٣٩١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « العزلة » (٢٠٢) ، وحكى البلاذري في « أنساب الأشراف » (١٢/ ٣٨٩) هـٰذا عن إياس بن قتادة ، وهو تابعي .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٨٨٨٧) .

وكانَ يُقالُ : (العلماءُ إذا علموا . . عملوا ، فإذا عملوا . . شُغلوا ، فإذا شُغلوا . . فُقدوا ، فإذا فُقدوا . . طُلبوا ، فإذا طُلبوا . . هَربوا)[1] .

وكتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى الحسنِ رحمَهُما اللهُ : أما بعدُ : فأشرْ عليَّ بقومٍ أستعينُ بهِمْ علىٰ أمرِ اللهِ تعالىٰ .

فكتبَ إليهِ : أمَّا أهلُ الدينِ . . فلنْ يريدوكَ ، وأمَّا أهلُ الدنيا . . فلنْ تريدَهُمْ ، ولكنْ عليكَ بالأشرافِ ؛ فإنَّهُمْ يصونونَ شرفَهُمْ أنْ يدنِّسوهُ بالخيانةِ[2] .

هٰذا في عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ ، وكانَ أزهدَ أهلِ زمانِهِ ، فإذا كانَ شرطُ أهلِ الدينِ الهربَ منهُ . . فكيفَ يستتبُّ طلبُ غيرِهِ ومخالطتُهُ ؟!

ولمْ يزلِ السلفُ العلماءُ مثلُ الحسنِ والثوريِّ وابنِ المباركِ والفضيلِ وإبراهيمَ بنِ أدهمَ ويوسفَ بنِ أسباطٍ يتكلَّمونَ في علماءِ الدنيا مِنْ أهلِ مكَّةَ والشامِ وغيرِهِمْ ؛ إمَّا لميلِهِمْ إلى الدنيا ، وإما لمخالطتِهِمُ السلاطينَ .

❁ ❁ ❁

ومنها : ألا يكونَ مسارعاً إلى الفتوىٰ : بلْ يكونُ متوقِّفاً ومحترزاً ما وجدَ إلى الخلاصِ سبيلاً ، فإنْ سُئِلَ عمَّا يعلمُهُ تحقيقاً بنصِّ كتابِ اللهِ أو بنصِّ

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٥/ ٢٣٤) عن يزيد بن ميسرة رحمه الله تعالىٰ ، ومعنىٰ (شغلوا) أي : بالله تعالىٰ ، وهو نتيجة العمل الصادق ، و(هربوا) أي : من الخلق ؛ سلامة لدينهم وجمعاً لخواطر قلوبهم . « إتحاف » (١/ ٣٩١) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٣٤) .

حديثٍ أوْ إجماعٍ أوْ قياسٍ جلِيٍّ . . أفتىٰ ، وإنْ سُئِلَ عمَّا يشكُّ فيهِ . . قال : (لا أدري) ، وإنْ سُئِلَ عمَّا يظنُّهُ باجتهادٍ وتخمينٍ . . احتاطَ ودفعَ عنْ نفسِهِ وأحالَ علىٰ غيرِهِ إنْ كانَ في غيرِهِ غُنيةٌ .

هـٰذا هوَ الحزمُ ؛ لأنَّ تقلُّدَ خطرِ الاجتهادِ عظيمٌ .

وفي الخبرِ : (العلمُ ثلاثةٌ : كتابٌ ناطقٌ ، وسنةٌ قائمةٌ ، ولا أدري)[1] .

وقالَ الشعبيُّ : (لا أدري نصفُ العلمِ)[2] .

ومَنْ سكتَ حيثُ لا يدري للهِ تعالىٰ . . فليسَ بأقلَّ أجراً ممَّنْ نطقَ ؛ لأنَّ الاعترافَ بالجهْلِ أشدُّ على النفسِ ، وهـٰكذا كانتْ عادةُ الصحابةِ والسلفِ رضيَ اللهُ عنهُمْ .

كانَ ابنُ عمرَ إذا سُئِلَ عنِ الفتوىٰ . . قالَ : اذهبْ إلىٰ هـٰذا الأميرِ الذي تقلَّدَ أمورَ الناسِ فضَعْها في عنقِهِ[3] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ الذي يفتي الناسَ في كلِّ ما يستفتونَهُ لَمجنونٌ)[4] .

---

(١) هو من كلام ابن عمر رضي الله عنهما ، رواه عنه الطبراني في « الأوسط » (١٠٠٥) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٣٨٧) .
(٢) رواه الدارمي في « سننه » (١٨٦) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٣١) .
(٤) رواه الدارمي في « سننه » (١٧٦) .

وقالَ : (جُنَّةُ العالِمِ لا أدري ، فإذا أخطأها . . أصيبتْ مقاتلُهُ)[1] .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ : (ليسَ شيءٌ أشدَّ على الشيطانِ مِنْ عالمٍ يتكلَّمُ بعلْمٍ ويسكتُ بعلْمٍ ، يقولُ : انظروا إلىٰ هـٰذا ، سكوتُهُ أشدُّ عليَّ مِنْ كلامِهِ)[2] .

ووصفَ بعضُهُمُ الأبدالَ فقالَ : (أكْلُهُمْ فاقةٌ ، وكلامُهُمْ ضرورةٌ)[3] أي : ما يتكلمونَ حتَّىٰ يُسألوا ، فإذا سُئِلوا ووجدوا مَنْ يكفيهِمْ . . سكتوا ، فإنِ اضطروا . . أجابوا ، وكانوا يعدُّون الابتداءَ قبلَ السؤالِ مِنَ الشهوةِ الخفيَّةِ للكلامِ .

ومرَّ عليٌّ وعبدُ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُما برجلٍ يتكلَّمُ على الناسِ ، فقالا : (هـٰذا يقولُ : اعرفوني)[4] .

وقالَ بعضُهُمْ : (إنَّما العالمُ الذي إذا سُئِلَ عنِ المسألةِ فكأنَّما يقلَعُ ضرسَهُ)[5] .

---

(١) رواه الصنعاني في « الأمالي في آثار الصحابة » (١٦٢) ، وهو مروي عن غيره من السلف .

(٢) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ٢٦) بنحوه .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٥٤) ، والواصف هو فزارة الشامي كما جاء في غير هـٰذا الموضع .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٥٥) ، وعبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه .

(٥) قوت القلوب (١/ ١٥٥) ، والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٤٥٩) بنحوه .

وكانَ ابنُ عمرَ يقولُ : (تريدونَ أنْ تجعلونا جسراً تعبرونَ علينا إلىٰ جهنَّمَ ؟!)[1] .

وقالَ أبو حفصٍ النيسابوريُّ : (العالمُ هوَ الذي يخافُ عندَ السؤالِ أنْ يُقالَ لهُ يومَ القيامةِ : مِنْ أينَ أجبتَ ؟)[2] .

وكانَ إبراهيمُ التيميُّ إذا سُئِلَ عنْ مسألةٍ.. يبكي ويقولُ : لمْ تجدوا غيري حتَّى احتجتُمْ إليَّ ؟[3] .

وكانَ أبو العاليةِ الرياحيُّ وإبراهيمُ والثوريُّ وابنُ أدهمَ يتكلَّمونَ على الاثنينِ والثلاثةِ والنفرِ اليسيرِ ، فإذا كثروا.. انصرفوا[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أدري أعزيرٌ نبيٌّ أمْ لا ، وما أدري أتُبَّعٌ ملعونٌ أمْ لا ، وما أدري ذو القرنين نبيٌّ أمْ لا »[5] .

ولمَّا سُئِلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ خيرِ البقاعِ في الأرضِ وشرِّها ، قالَ : « لا أدري » ، حتَّىٰ نزلَ عليهِ جبريلُ عليهِ السلامُ ، فسألَهُ عنْ ذلكَ ، فقالَ : لا أدري ، إلىٰ أنْ أعْلَمَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ خيرَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٥٥) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٥٥) بنحوه .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٥٥) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٥٥) ، وإبراهيم هو النخعي .
(٥) رواه أبو داوود (٤٦٧٤) ، والجملة الأخيرة عند الحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٤) .

البقاعِ المساجدُ ، وشرَّهَا الأَسْواقُ[١] .

وكانَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما يُسألُ عنْ عشرِ مسائلَ ، فيجيبُ عنْ واحدةٍ ويسكتُ عنْ تسعٍ[٢] .

وكانَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما يجيبُ عنْ تسعٍ ويسكتُ عنْ واحدةٍ[٣] .

وكانَ في الفقهاءِ مَنْ يقولُ : (لا أدري) أكثرَ مِنْ أنْ يقولَ : (أدري) ؛ منهمْ سفيانُ الثوريُّ ، ومالكُ بنُ أنسٍ ، وأحمدُ ابنُ حنبلٍ ، والفضيلُ بنُ عياضٍ ، وبشرُ بنُ الحارثِ[٤] .

وقالَ عبدُ الرحمٰنِ بنُ أبي ليلىٰ : (أدركتُ في هٰذا المسجدِ مئةً وعشرينَ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما منهُمْ أحدٌ يُسألُ عنْ حديثٍ أوْ فتوىٰ إلا وَدَّ أنَّ أخاهُ كفاهُ ذلكَ)[٥] .

وفي لفظٍ آخرَ : (كانتِ المسألةُ تعرضُ علىٰ أحدِهِمْ فيردُّها إلى الآخرِ ، ويردُّها الآخرُ إلى الآخرِ ، حتَّىٰ تعودَ إلى الأولِ) .

ورُويَ أنَّ أصحابَ الصُّفَّةِ أُهديَ إلىٰ واحدٍ منهمْ رأسٌ مشويٌّ وهوَ في

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (١٥٩٩) ، والطبراني في « الأوسط » (٧١٣٦) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٣١) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٣١) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٣١) .
(٥) تاريخ دمشق (٣٦/ ٨٧) ، وكذا في « قوت القلوب » (١/ ١٣١) .

غايةِ الضرِّ ، فأهداهُ إلىٰ آخرَ ، وأهداهُ الآخرُ إلىٰ آخرَ ، وهٰكذا دارَ بينهُمْ حتَّىٰ رجعَ إلى الأولِ[1] .

فانظرِ الآنَ كيفَ انعكسَ أمرُ العلماءِ ، فصارَ المهروبُ عنهُ مطلوباً ، والمطلوبُ مهروباً عنهُ .

ويشهدُ لحسنِ الاحترازِ مِنْ تقلُّدِ الفتوىٰ ما رُوِيَ مسنداً أنَّهُ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يفتي الناسَ إلا ثلاثةٌ : أميرٌ ، أوْ مأمورٌ ، أوْ متكلِّفٌ »[2] .

وقالَ بعضُهُمْ : (كانَ الصحابةُ يتدافعونَ أربعةَ أشياءَ : الإمامةَ ، والوصيةَ ، والوديعةَ ، والفتيا)[3] .

وقالَ بعضُهُمْ : (كانَ أسرعُهُمْ إلى الفتيا أقلَّهُمْ علماً ، وأشدُّهُمْ دفعاً لها أورعَهُمْ)[4] .

وكانَ شغلُ الصحابةِ والتابعينَ رضيَ اللهُ عنهُمْ في خمسةِ أشياءَ : قراءةِ القرآنِ ، وعمارةِ المساجدِ ، وذكرِ اللهِ تعالىٰ ، والأمرِ بالمعروفِ ، والنهيِ عنِ المنكرِ ؛ وذلكَ لما سمعوهُ مِنْ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ كلامِ ابنِ آدمَ

---

(١) وإنما أورد المصنف هٰذه القصة هنا ليقاس عليه أمر الفتوىٰ حتىٰ يعيدها إلى الآخر . « إتحاف » (١/ ٣٩٨) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ١٣١) حيث قال : (وقد روينا مسنداً) وذكره ، وقد رواه بنحوه أحمد في « المسند » (٦/ ٢٢) ، والطبراني في « الكبير » (١٨/ ٧٦) ، وأوله : « لا يقصُّ إلا أمير . . . » ، وله روايات أخرىٰ .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٣٢) .

(٤) جامع بيان العلم وفضله (١٥٢٥) ، وكذا في « قوت القلوب » (١/ ١٣٢) .

عليهِ لا لهُ إلا ثلاثةٌ: أمرٌ بمعروفٍ، أوْ نهيٌ عنْ منكرٍ ، أوْ ذكرُ اللهِ تعالىٰ»[1].

وقالَ تعالىٰ : ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ الآيةَ .

ورأىٰ بعضُ العلماءِ بعضَ أصحابِ الرأيِ مِنْ أهلِ الكوفةِ في المنامِ ، فقالَ : ما رأيتَ فيما كنتَ عليهِ منَ الفتيا والرأيِ ؟ فكرهَ وجهَهُ وأعرضَ عنهُ ، وقالَ : ما وجدناهُ شيئاً ، وما حمدْنا عاقبتَهُ[2] .

وقالَ أبو حَصِينٍ : (إنَّ أحدَهُمْ ليفتي في مسألةٍ لوْ وردتْ علىٰ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ لجمعَ لها أهلَ بدرٍ !)[3] .

فلمْ يزلِ السكوتُ دأبَ أهلِ العلمِ إلا عندَ الضرورةِ ، وفي الخبرِ : « إذا رأيتمُ الرجلَ قدْ أُوتيَ صمتاً وزهداً . . فاقتربُوا منهُ ؛ فإنَّهُ يُلَقَّى الحكمةَ »[4] .

وقيلَ : العالمُ : إمَّا عالمُ عامَّةٍ ، وهوَ المفتي ، وهُمْ أصحابُ الأساطينِ ، أوْ عالمُ خاصَّةٍ ، وهوَ العالمُ بالتوحيدِ وأعمالِ القلوبِ ، وهُمْ أصحابُ الزوايا المنفردونَ[5] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٤١٢) ، وابن ماجه (٣٩٧٤) بنحوه .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٣٢) بنحوه .

(٣) رواه البيهقي في « المدخل » (٨٠٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٨/ ٤١٠) .

(٤) رواه ابن ماجه (٤١٠١) .

(٥) قوت القلوب (١/ ١٤٢) ، **والأساطين** : جمع أسطوانة ، وهي هنا السارية تكون في المسجد .

وكانَ يُقالُ : (مثلُ أحمدَ ابنِ حنبلٍ مثلُ دِجلةَ ، كلُّ أحدٍ يغترفُ منها ، ومثلُ بشْرِ بنِ الحارثِ مثلُ بئرٍ عذبةٍ مغطَّاةٍ ، لا يقصدُها إلا واحدٌ بعدَ واحدٍ)[١] .

وكانوا يقولونَ : فلانٌ عالمٌ ، وفلانٌ متكلِّمٌ ، وفلانٌ أكثرُ كلاماً ، وفلانٌ أكثرُ علماً[٢] .

وقالَ أبو سليمانَ : (المعرفةُ إلى السكوتِ أقربُ منها إلى الكلامِ)[٣] .

وقالَ بعضُهُمْ : (إذا كثرَ العلمُ . . قلَّ الكلامُ)[٤] .

وكتبَ سلمانُ إلىٰ أبي الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُما وكانَ قدْ آخىٰ بينَهُما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[٥] : (يا أخي ؛ بلغني أنَّكَ أُقعدتَ طبيباً تداوي المرضىٰ ، فانظرْ فإنْ كنتَ طبيباً . . فتكلَّمْ ؛ فإنَّ كلامَكَ شفاءٌ ، وإنْ كنتَ مُتَطَبِّباً . . فاللهَ اللهَ ، لا تقتلْ مسلماً) ، فكانَ أبو الدرداءِ يتوقَّفُ بعدَ ذلكَ إذا سُئِلَ[٦] .

وكان أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ إذا سُئِلَ يقولُ : (سَلُوا مولانا الحسنَ)[٧] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤٢) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٤٢) ، وإنما أراد التفرقة بين العلم والكلام .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٤٢) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٤٢) ، وفي (هـ) زيادة : (إذا كثر الكلام . . قل العلم) .
(٥) كما جاء ذلك في « البخاري » (١٩٦٨) .
(٦) قوت القلوب (١/ ١٤٧) .
(٧) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٤٥) .

وكانَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما إذا سئلَ يقولُ: (سَلُوا جابرَ بنَ زيدٍ)[1].

وكانَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما يقولُ : (سَلُوا سعيدَ بنَ المسيَّبِ)[2] .

وحُكِيَ أنَّهُ روىٰ صحابيٌّ في حضرةِ الحسنِ عشرينَ حديثاً ، فسُئِلَ عنْ تفسيرِها فقالَ : ما عندي إلا ما رويتُ ، فأخذَ الحسنُ في تفسيرِها حديثاً حديثاً ، فتعجَّبوا مِنْ حسنِ حفظِهِ وحسنِ تفسيرِهِ ، فأخذَ الصحابيُّ كفّاً مِنْ حصىً ورماهُمْ بهِ وقالَ: تسألوني عنِ العلمِ وهـٰذا الحبرُ بينَ أظهرِكُمْ ؟![3].

ومنها : **أنْ يكونَ أكثرُ اهتمامِهِ بعلمِ الباطنِ ومراقبةِ القلبِ ، ومعرفةِ طريقِ الآخرةِ وسلوكِهِ[4] ، وصدقِ الرجاءِ في انكشافِ ذلكَ** : منَ المجاهدةِ والمراقبةِ ؛ فإنَّ المجاهدةَ تفضي إلى المشاهدةِ في دقائقِ علومِ القلوبِ وتتفجرُ بها ينابيعُ الحكمةِ مِنَ القلبِ ، وأمَّا الكتبُ والتعليمُ . فلا تفي بذلكَ ، بلِ الحكمةُ الخارجةُ عنِ الحصْرِ والعدِّ إنَّما تنفتحُ بالمجاهدةِ والمراقبةِ ، ومباشرةِ الأعمالِ الظاهرةِ والباطنةِ ، والجلوسِ معَ اللهِ تعالىٰ في الخلوةِ معَ حضورِ القلبِ بصافي الفكرِ ، والانقطاعِ إلى اللهِ تعالىٰ عمَّا سواهُ ، فذلكَ مفتاحُ الإلهامِ ، ومنبعُ الكشْفِ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤٧) .

(٢) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٧/ ١٤٠) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٤٧) بنحوه .

(٤) بواسطة مرشد كامل أو عارف حاذق يستفيد ذلك بمجالسته . « إتحاف » (١/ ٤٠٢) .

فكمْ مِنْ متعلِّمٍ طالَ تعلُّمُهُ ولمْ يقدِرْ علىٰ مجاوزةِ مسموعِهِ بكلمةٍ ، وكمْ مِنْ مقتصرٍ على المهمِّ في التعلُّمِ ومتوفِّرٍ على العملِ ومراقبةِ القلْبِ فَتَحَ اللهُ لهُ مِنْ لطائفِ الحكمِ ما تحارُ فيهِ عقولُ ذوي الألبابِ !

ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عملَ بما علمَ . . وَرَّثَهُ اللهُ علْمَ ما لمْ يعلمْ »[1] .

وفي بعضِ الكتبِ السالفةِ : (يا بني إسرائيلَ ؛ لا تقولوا : العلمُ في السماءِ مَنْ ينزلُ بهِ ، ولا في تُخُومِ الأرضِ مَنْ يصعدُ بهِ ، ولا مِنْ وراءِ البحارِ مَنْ يعبرُ يأتي بهِ ، العلْمُ مجعولٌ في قلوبِكُمْ ، تأدَّبوا بين يديَّ بآدابِ الروحانيينَ ، وتخلَّقُوا لي بأخلاقِ الصدِّيقينَ . . أُظهِرِ العلمَ في قلوبِكُمْ حتَّىٰ يغطيَكُمْ ويغمرَكُمْ)[2] .

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّسْتَرِيُّ رحمهُ اللهُ : (خرجَ العلماءُ والعبَّادُ والزهَّادُ مِنَ الدنيا وقلوبُهُمْ مقفلةٌ، ولمْ تُفتحْ إلا قلوبُ الصدِّيقينَ والشهداءِ، ثمَّ تلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ الآيةَ)[3] .

ولولا أنَّ إدراكَ قلبِ مَنْ لهُ قلبٌ بالنورِ الباطنِ حاكمٌ علىٰ علْمِ الظاهرِ . . لما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اسْتَفْتِ قلبَكَ وإنْ أفتوكَ وأفتوكَ »[4] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٤) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٣٧) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٥٢) .
(٤) رواه أحمد في « مسنده » (٤/ ٢٢٨)، وهـٰذا مخصوص لمن كان له قلب وألقىٰ سمعه ، =

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فيما يرويهِ عنْ ربِّهِ: «لا يزالُ العبدُ يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّىٰ أحبَّهُ، فإذا أحببتُهُ.. كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ بهِ... » الحديثَ[1].

فكمْ مِنْ معانٍ دقيقةٍ مِنْ أسرارِ القرآنِ تخطرُ علىٰ قلْبِ المتجرِّدِينَ للذكرِ والفكرِ تخلو عنها كتبُ التفاسيرِ ولا يطلعُ عليها أفاضلُ المفسرينَ! وإذا انكشفَ ذلكَ للمريدِ المراقبِ وعُرِضَ على المفسرينَ[2].. استحسنوهُ، وعلموا أنَّ ذلكَ مِنْ تنبيهاتِ القلوبِ الزكيةِ، وألطافِ اللهِ تعالىٰ بالهممِ العاليةِ المتوجهةِ إليهِ، وكذلكَ في علومِ المكاشفةِ وأسرارِ علومِ المعاملةِ ودقائقِ خواطرِ القلوبِ؛ فإنَّ كلَّ علْمٍ مِنْ هـٰذهِ العلومِ بحرٌ لا يُدركُ عمقُهُ، وإنَّما يخوضُهُ كلُّ طالبٍ بقدْرِ ما رُزِقَ منهُ، وبحسَبِ ما وُفِّقَ لهُ مِنْ حُسْنِ العملِ.

وفي وصفِ هؤلاءِ العلماءِ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في حديثٍ طويلٍ: (القلوبُ أوعيةٌ، وخيرُها أوعاها، والناسُ ثلاثةٌ: عالمٌ ربانيٌّ، ومتعلِّمٌ علىٰ سبيلِ النجاةِ، وهَمَجٌ رَعاعٌ أتباعُ كلِّ ناعقٍ، يميلونَ معَ كلِّ ريحٍ، لمْ يستضيئوا بنورِ العلمِ، ولمْ يلجؤوا إلىٰ ركنٍ وثيقٍ، العلمُ خيرٌ مِنَ المالِ، العلمُ يحرسُكَ وأنتَ تحرسُ المالَ، والعلمُ يزكو على الإنفاقِ والمالُ تنقصُهُ النفقةُ، محبَّةُ العالمِ دينٌ يدانُ بهِ، تُكتسبُ بهِ الطاعةُ في حياتِهِ، وجميلُ

= وشهد قيام شاهده، وعري عن شهواته ومعهوده؛ لأن الفقه ليس من وصف اللسان. «إتحاف» (١/ ٤٠٣).

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) المنصفين المحفوظين من علائق الشهوة. «إتحاف» (١/ ٤٠٤).

الأحدوثةِ بعدَ موتِهِ ، العلمُ حاكمٌ والمالُ محكومٌ عليهِ ، ومنفعةُ المالِ تزولُ بزوالِهِ ، ماتَ خُزَّانُ الأموالِ وهمْ أحياءٌ ، والعلماءُ باقونَ ما بقيَ الدهرُ .

ثمَّ تنفَّسَ الصعداءَ وقالَ : **هاهْ ! إنَّ هـٰهنا علْماً جمّاً لوْ وجدتُ لهُ حملةً** ، بلْ أجدُ طالباً غيرَ مأمونٍ يستعملُ آلةَ الدينِ في طلبِ الدنيا ، ويستطيلُ بنِعَمِ اللهِ علىٰ أوليائِهِ ، ويستظهرُ بحُجَجِهِ علىٰ خلقِهِ ، أوْ منقاداً لأهلِ الحقِّ ، لكنْ ينزعُ الشكُّ في قلبِهِ بأوَّلِ عارضٍ مِنْ شبهَةٍ ، **لا بصيرةَ لهُ ، لا ذا ولا ذاكَ** ، أوْ منهوماً باللذَّاتِ سلسَ القيادِ في طلبِ الشهواتِ ، أوْ مغرىً بجمْعِ الأموالِ والادخارِ ، منقاداً لهواهُ ، أقربُ شَبَهاً بهما الأنعامُ السائمةُ[1] .

اللهمَّ ؛ هـٰكذا يموتُ العلْمُ إذا ماتَ حاملوهُ ، بلْ لا تخلو الأرضُ مِنْ قائمٍ للهِ بحجَّةٍ ، إمَّا ظاهرٌ مكشوفٌ ، وإمَّا خائفٌ مقهورٌ ؛ لئلا تبطُلَ حججُ اللهِ تعالىٰ وبيِّناتُهُ ، وكمْ وأينَ . . أولئكَ همُ الأقلُّونَ عدداً ، الأعظمونَ قدْراً ؟! أعيانُهُمْ مفقودةٌ ، وأمثالُهُمْ في القلوبِ موجودةٌ ، يحفظُ اللهُ تعالىٰ بهِمْ حججَهُ حتَّىٰ يُودِعُوها نظراءَهُمْ ، ويزرعُوها في قلوبِ أشباهِهِمْ ، هجَمَ بهمُ العلْمُ علىٰ حقيقةِ الأمرِ ، فباشروا رُوحَ اليقينِ ، فاستلانوا ما استوعرَ منهُ المترفونَ ، وأَنِسُوا بما استوحشَ منهُ الغافلونَ ، صَحِبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلَّقةٌ بالمحلِّ الأعلىٰ ، أولئكَ أولياءُ اللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ خلقِهِ ، وأمناؤُهُ وعمالُهُ في أرضِهِ ، والدعاةُ إلىٰ دينِهِ .

---

(١) قوله : (بهما) المنهوم باللذة ، والمغرىٰ بجمع الأموال .

ثمَّ بكىٰ وقالَ : وا شوقاهُ إلىٰ رؤيتِهِمْ)[1] .

فهٰذا الذي ذكرَهُ آخراً هوَ وصْفُ علماءِ الآخرةِ ، وهوَ العلمُ الذي يُستفادُ أكثرُهُ مِنَ العملِ والمواظبةِ على المجاهدةِ .

ومنها : أنْ يكونَ شديدَ العنايةِ بتقويةِ اليقينِ : فإنَّ اليقينَ هوَ رأسُ مالِ الدينِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اليقينُ الإيمانُ كلُّهُ »[2] .

ولا بدَّ منْ تعلُّمِ علْمِ اليقينِ ، أعني أوائلَهُ ، ثمَّ ينفتحُ للقلبِ طريقُهُ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تعلَّمُوا اليقينَ »[3] ، ومعناهُ : جالسوا الموقنينَ ، واسمعوا منهُمْ علْمَ اليقينِ ، وواظبوا على الاقتداءِ بِهِمْ ؛ ليقوىٰ يقينُكُمْ كما قويَ يقينُهُمْ ، وقليلٌ منَ اليقينِ خيرٌ مِنْ كثيرٍ مِنَ العملِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا قيلَ لهُ : رجلٌ حسنُ اليقينِ كثيرُ الذنوبِ ، ورجلٌ مجتهدٌ في العبادةِ قليلُ اليقينِ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ آدميٍّ إلاَّ ولهُ ذنوبٌ ، ولكنْ مَنْ كانَ غريزتُهُ العقلَ وسجيتُهُ اليقينَ . . لمْ تضرُّهُ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٧٩ ـ ٨٠) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٦/ ٣٧٦) ، وانظر « قوت القلوب » (١/ ١٤٢ـ١٤٣) ، و« إتحاف السادة المتقين » (١/ ٤٠٦) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٢٦٥) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٩٥) ، وابن أبي الدنيا في « اليقين » (٧) .

الذنوبُ ؛ لأنَّه كلَّما أذنبَ . . تابَ واستغفرَ وندمَ ، فتُكفَّرُ ذنوبُهُ ، ويبقىٰ لهُ فضْلٌ يدخلُ بهِ الجنةَ »[1] .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنْ أقلِّ ما أُوتيتمُ اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ ، ومَنْ أُعْطيَ حَظَّهُ منهما . . لمْ يُبَالِ ما فاتَهُ مِنْ قيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ »[2] .

وفي وصيةِ لقمانَ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا يُستطاعُ العملُ إلا باليقينِ ، ولا يعمَلُ المرءُ إلا بقدْرِ يقينِهِ ، ولا يقصِّرُ عاملٌ حتَّىٰ ينقصَ يقينُهُ)[3] .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (إنَّ للتوحيدِ نوراً ، وللشرْكِ ناراً ، وإنَّ نورَ التوحيدِ أحرقُ لسيئاتِ الموحدينَ منْ نارِ الشرْكِ لحسناتِ المشركينَ)[4] ، وأرادَ بهِ اليقينَ .

---

(١) الحديث عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٤٢) ، وهو في « القوت » (١/ ١٣٥) ، وانظر « المطالب العالية » (٧/ ٢٦٦ ، ٢٦٩) ، و« الإتحاف » (١/ ٤٠٩) .

(٢) قال صاحب « القوت » (١/ ١٩٤) : (وأخبر عليه الصلاةُ والسلام أن الصبر كمال العمل والأجر ، فقال في حديث يرويه شهر بن حوشب الأشعري ، عن أبي أمامة الباهلي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم . . .) وذكره ، قال ملا علي في « الأسرار المرفوعة » : (قلت : وهو مستفاد من قوله تعالىٰ : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ، وأما عزيمة الصبر في العمل . . فكذا قليل كما قال الله تعالىٰ : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٣٥) .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٣٦) .

وقدْ أشارَ اللهُ تعالىٰ في القرآنِ إلىٰ ذكرِ الموقنينَ في مواضعَ دلَّ بها علىٰ أنَّ اليقينَ هوَ الرابطةُ للخيراتِ والسعاداتِ .

فإنْ قلتَ : فما معنى اليقينِ ، وما معنىٰ قوتِهِ وضعفِهِ ؟ فلا بدَّ مِنْ فهمِهِ أولاً ، ثمَّ الاشتغالِ بطلبِهِ وتعلُّمِهِ ؛ فإنَّ ما لا تُفهَمُ صورتُهُ لا يمكنُ طلبُهُ .

فاعلمْ : أنَّ اليقينَ لفظٌ مشتركٌ يطلقُهُ فريقانِ لمعنيينِ مختلفينِ :

أمَّا النظَّارُ والمتكلمونَ : فيعبِّرونَ بهِ عن عدمَ الشكِّ[1] ؛ إذْ ميلُ النفسِ إلى التصديقِ بالشيءِ لهُ أربعُ مقاماتٍ :

الأولُ : أنْ يعتدلَ التصديقُ والتكذيبُ ، ويُعبَّرُ عنهُ بالشكِّ ، كما إذا سُئِلتَ عنْ شخصٍ معيَّنٍ أنَّ اللهَ تعالىٰ يعاقبُهُ أمْ لا وهوَ مجهولُ الحالِ عندَكَ . . فإنَّ نفسَكَ لا تميلُ إلى الحكْمِ فيهِ بإثباتٍ ولا نفيٍ ، بلْ يستوي عندَكَ إمكانُ الأمرينِ ، فيسمَّىٰ هـٰذا **شكّاً** .

الثاني : أنْ تميلَ نفسُكَ إلىٰ أحدِ الأمرينِ معَ الشعورِ بإمكانِ نقيضِهِ ، ولكنَّهُ إمكانٌ لا يمنعُ ترجيحَ الأوَّلِ ، كما إذا سُئِلتَ عنْ رجلٍ تعرفُهُ بالصلاحِ والتقوىٰ أنَّهُ بعينِهِ لوْ ماتَ علىٰ هـٰذهِ الحالةِ هلْ يُعاقبُ ؟ فإنَّ نفسَكَ تميلُ إلىٰ أنَّهُ لا يُعاقبُ أكثرَ مِنْ ميلِها إلى العقابِ ، وذلكَ لظهورِ علاماتِ الصلاحِ ، ومعَ هـٰذا فأنتَ تجوِّزُ اختفاءَ أمرٍ موجبٍ للعقابِ في باطنِهِ وسريرتِهِ ، فهـٰذا

---

(١) فالشكُّ نقيضه ، وهـٰذا هو مذهب أهل اللغة . « إتحاف » (١/ ٤١٠) .

التجويزُ مساوقٌ لذلكَ الميلِ ، ولكنَّه غيرُ دافعٍ رجحانَهُ ، فهـٰذهِ الحالةُ تُسمَّىٰ **ظنّاً** .

الثالثُ : أنْ تميلَ النفسُ إلى التصديقِ بشيءٍ بحيثُ يغلبُ عليها ولا يخطرُ بالبالِ غيرُهُ ، ولوْ خطرَ بالبالِ . . لنَبَتِ النفسُ عنْ قبولِهِ ، ولكنْ ليسَ ذلكَ عنْ معرفةٍ محقَّقةٍ ؛ إذْ لوْ أحسنَ صاحبُ هـٰذا المقامِ التأمُّلَ والإصغاءَ إلى التشكيكِ والتجويزِ . . لاتسعتْ نفسُهُ للتجويزِ ، وهـٰذا يسمَّى **اعتقاداً مقارباً لليقينِ** ، وهوَ اعتقادُ العوامِّ في الشرعياتِ كلِّها ؛ إذْ رسخَ في نفوسِهِمْ بمجرَّدِ السماعِ ، حتَّىٰ إنَّ كلَّ فرقةٍ تثقُ بصحَّةِ مذهبِها وإصابةِ إمامِها ومتبوعِها ، ولوْ ذُكِرَ لأحدِهِمْ إمكانُ خطأِ إمامِهِ . . نفرَ عنْ قبولِهِ[1] .

الرابعُ : المعرفةُ الحقيقيةُ الحاصلةُ بطريقِ البرهانِ الذي لا يُشكُّ فيهِ ، ولا يُتصوَّرُ الشكُّ فيهِ ، فإذا امتنعَ وجودُ الشكِّ وإمكانُهُ . . يسمَّىٰ **يقيناً** عندَ هؤلاءِ .

ومثالُهُ : أنَّهُ إذا قيلَ للعاقلِ : هلْ في الوجودِ شيءٌ هوَ قديمٌ ؟ فلا يمكنُهُ التصديقُ بهِ بالبديهةِ ؛ لأنَّ القديمَ غيرُ محسوسٍ ، لا كالشمسِ والقمرِ ؛ فإنَّهُ يصدقُ بوجودِهِما بالحسِّ ، وليسَ العلمُ بوجودِ شيءٍ قديمٍ أزليٍّ ضرورياً مثلَ العلمِ بأنَّ الاثنينِ أكثرُ مِنَ الواحدِ ، بلْ مثلَ العلمِ بأنَّ حدوثَ حادثٍ بلا سببٍ محالٌ ، فإنَّ هـٰذا أيضاً ضروريٌّ ، فحقُّ غريزةِ العقلِ أنْ تتوقَّفَ عنِ

---

(١) انظر « الاقتصاد في الاعتقاد » (ص٢٢٨) ، وفصَّل تفصيلاً حسناً .

التصديقِ بوجودِ القديمِ علىٰ طريقِ الارتجالِ والبديهةِ .

ثمَّ مِنَ الناسِ مَنْ يسمعُ ذلكَ ويصدِّقُ بالسماعِ تصديقاً جزماً ويستمرُّ عليهِ ، وذلكَ هوَ الاعتقادُ ، وهوَ حالُ جميعِ العوامِّ ، ومِنَ الناسِ مَنْ يصدِّقُ بهِ بالبرهانِ وهوَ أنْ يُقالَ لهُ : إنْ لمْ يكنْ في الوجودِ قديمٌ . . فالموجوداتُ كلُّها حادثةٌ ، فإنْ كانتْ كلُّها حادثةً . . فهيَ حادثةٌ بلا سببٍ ، أوْ فيها حادثٌ بلا سببٍ ، وذلكَ محالٌ ؛ فالمؤدِّي إلى المحالِ محالٌ ، فيلزمُ في العقلِ التصديقُ بوجودِ شيءٍ قديمٍ بالضرورةِ ؛ لأنَّ الأقسامَ ثلاثةٌ : وهيَ أنْ تكونَ الموجوداتُ كلُّها قديمةً ، أوْ كلُّها حادثةً ، أوْ بعضُها قديمةً وبعضُها حادثةً .

فإنْ كانتْ كلُّها قديمةً . . فقدْ حصلَ المطلوبُ ؛ إذْ ثبتَ على الجملةِ قديمٌ ، وإنْ كانَ الكلُّ حادثاً . . فهوَ محالٌ ؛ إذْ يؤدِّي إلىٰ حدوثٍ بغيرِ سببٍ ، فثبتَ القسمُ الثالثُ أوِ الأولُ .

وكلُّ عِلْمٍ حصلَ علىٰ هٰذا الوجهِ يسمَّىٰ يقيناً عندَ هؤلاءِ ، سواءً حصلَ بنظرٍ مثلِ ما ذكرناهُ ، أوْ حصلَ بحسٍّ أوْ بغريزةِ العقلِ ؛ كالعلْمِ باستحالةِ حادثٍ بلا سببٍ ، أوْ بتواترٍ ؛ كالعلْمِ بوجودِ مكَّةَ ، أوْ بتجربةٍ ؛ كالعلْمِ بأنَّ المطبوخَ مسهلٌ[1] ، أوْ بدليلٍ كما ذكرْنا .

فشرطُ إطلاقِ هٰذا الاسمِ عندَهُمْ عدمُ الشكِّ ، فكلُّ علْمٍ لا شكَّ فيهِ

(١) والمطبوخ هنا : كل دواء طبخ لقصد الإسهال . « إتحاف » (١/ ٤١٣) .

يُسمَّىٰ يقيناً عندَ هؤلاءِ ، وعلىٰ هـٰذا : لا يُوصفُ اليقينُ بالضعْفِ ؛ إذْ لا تفاوتَ في نفيِ الشكِّ .

الاصطلاحُ الثاني اصطلاحُ الفقهاءِ والمتصوِّفَةِ وأكثرِ العلماءِ : وهوَ ألا يلتفتَ فيهِ إلى اعتبارِ التجويزِ والشكِّ ، بلْ إلى استيلائِهِ وغلبتِهِ على القلْبِ ، حتَّىٰ يُقالُ : فلانٌ ضعيفُ اليقينِ بالموتِ معَ أنَّهُ لا يشكُّ فيهِ ، ويُقالُ : فلانٌ قويُّ اليقينِ في إتيانِ الرزْقِ معَ أنَّهُ قدْ يجوزُ أنَّهُ لا يأتيهِ .

فمهما مالتِ النفسُ إلى التصديقِ بشيءٍ ، وغلبَ ذلكَ على القلبِ ، واستولىٰ حتَّىٰ صارَ هوَ المتحكِّمَ والمتصرِّفَ في النفسِ بالتجويزِ والمنعِ . . سُمِّيَ ذلكَ يقيناً .

ولا شكَّ في أنَّ الناسَ مشتركونَ في القطعِ بالموتِ والانفكاكِ عنِ الشكِّ فيهِ ، ولكنْ فيهِمْ مَنْ لا يلتفتُ إليهِ ، ولا إلى الاستعدادِ لهُ ، وكأنَّهُ غيرُ موقنٍ بهِ ، ومنهُمْ مَنِ استولىٰ ذلكَ علىٰ قلبِهِ حتَّى استغرقَ جميعَ همِّهِ بالاستعدادِ لهُ ولمْ يغادرْ فيهِ متَّسعاً لغيرِهِ ، فيعبَّرُ عنْ مثلِ هـٰذهِ الحالةِ بقوَّةِ اليقينِ ، ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ : (ما رأيتُ يقيناً لا شكَّ فيهِ أشبهَ بشكٍّ لا يقينَ فيهِ مِنَ الموتِ)[1] .

وعلىٰ هـٰذا الاصطلاحِ يُوصفُ اليقينُ بالضعْفِ والقوَّةِ .

ونحْنُ إنَّما أردْنا بقولِنا : (إنَّ مِنْ شأنِ علماءِ الآخرةِ صَرْفَ العنايةِ إلىٰ

---

(١) رواه أبو نعيم عن سلمة بن دينار في « الحلية » (٣/ ٢٣٢) .

تقويةِ اليقينِ) المعنيينِ جميعاً ، وهوَ نفيُ الشكِّ ، ثمَّ تسليطُ اليقينِ على النفسِ حتَّىٰ يكونَ هوَ الغالبَ المتحكِّمَ وهوَ المتصرِّفَ .

فإذا فهمتَ هـٰذا . . علمتَ أنَّ المرادَ مِنْ قولِنا : (إنَّ اليقينَ ينقسمُ ثلاثةَ أقسامٍ) بالقوَّةِ والضعفِ ، والقلَّةِ والكثرةِ ، والخفاءِ والجلاءِ .

فأمَّا بالقوَّةِ والضعفِ : فعلى الاصطلاحِ الثاني ؛ وذلكَ في الغلبةِ والاستيلاءِ على القلبِ ، ودرجاتُ اليقينِ في القوَّةِ والضعفِ لا تتناهىٰ ، وتفاوتُ الخلقِ في استعدادِهِمْ للموتِ بحسَبِ تفاوتِ اليقينِ بهـٰذهِ المعاني .

وأمَّا التفاوتُ بالخفاءِ والجلاءِ : فلا يُنكرُ أيضاً ؛ أمَّا فيما يتطرَّقُ إليهِ التجويزُ . . فلا ينكرُ ؛ أعني الاصطلاحَ الثانيَ ، وفيما انتفى الشكُّ عنهُ أيضاً . . لا سبيلَ إلىٰ إنكارِهِ ؛ فإنَّكَ تدركُ تفرقةً بينَ تصديقِكَ بوجودِ مكَّةَ ووجودِ فَدَكَ مثلاً ، وبينَ تصديقِكَ بوجودِ موسىٰ ووجودِ يوشعَ عليهما السلامُ معَ أنَّكَ لا تشُكُّ في الأمرينِ جميعاً ؛ إذْ مستندُهُما التواترُ جميعاً ، ولكنْ ترىٰ أحدَهُما أجلَىٰ وأوضحَ في قلبِكَ مِنَ الثاني ؛ لأنَّ السببَ في أحدِهما أقوىٰ ، وهوَ كثرةُ المخبرينَ ، وكذلكَ يدركُ الناظرُ هـٰذا في النظرياتِ المعلومةِ بالأدلَّةِ ؛ فإنَّهُ ليسَ وضوحُ ما لاحَ لهُ بدليلٍ واحدٍ كوضوحِ ما لاحَ لهُ بأدلةٍ كثيرةٍ معَ تساويهما في نفيِ الشكِّ ، وهـٰذا قدْ ينكرُهُ المتكلِّمُ الذي يأخذُ العلْمَ مِنَ الكُتبِ والسماعِ ولا يراجعُ نفسَهُ فيما يدركُهُ مِنْ تفاوتِ الأحوالِ .

وأمَّا القلَّةُ والكثرةُ : فذلكَ بكثرةِ متعلقاتِ اليقينِ ؛ كما يُقالُ : فلانٌ أكثرُ علماً ؛ أي : معلوماتُهُ أكثرُ ، ولذلكَ قدْ يكونُ العالِمُ قويَّ اليقينِ في جميعِ ما وردَ الشرعُ بهِ ، وقدْ يكونُ قويَّ اليقينِ في بعضِهِ .

فإنْ قلتَ : فقدْ فهمتُ اليقينَ وقوَّتَهُ وضعفَهُ ، وكثرتَهُ وقلَّتَهُ ، وجلاءَهُ وخفاءَهُ ، بمعنىٰ نفيِ الشكِّ، أو بمعنى الاستيلاءِ على القلبِ ، فما متعلقاتُ اليقينِ ومجاريهِ ، وفي ماذا يُطلبُ اليقينُ ؟ فإنِّي ما لمْ أعرفْ ما يُطلبُ فيهِ اليقينُ . . لمْ أقدرْ علىٰ طلبِهِ .

فاعلمْ : أنَّ جميعَ ما وردَ بهِ الأنبياءُ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِمْ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ هوَ مِنْ مجاري اليقينِ ؛ فإنَّ اليقينَ عبارةٌ عنْ معرفةٍ مخصوصةٍ ، ومتعلقَهُ المعلوماتُ التي وردتْ بها الشرائعُ ، فلا مطمعَ في إحصائِها ، ولكنِّي أشيرُ إلىٰ بعضِها وهيَ أمهاتُها :

فمنْ ذلكَ التوحيدُ : وهوَ أنْ يرى الأشياءَ كلَّها مِنْ مسبِّبِ الأسبابِ ، ولا يلتفتَ إلى الوسائطِ ، بلْ يرى الوسائطَ مسخرةً لا حكمَ لها ، فالمصدِّقُ بهـٰذا مؤمنٌ ، فإنِ انتفىٰ عنْ قلبِهِ معَ الإيمانِ إمكانُ الشكِّ . . فهوَ موقنٌ بأحدِ المعنيينِ ، فإنْ غلبَ علىٰ قلبِهِ معَ الإيمانِ غلبةً أزالَ عنهُ الغضبَ على الوسائطِ ، والرضا عنهُمْ والشكرَ لهمْ ، ونزَّلَ الوسائطَ في قلبِهِ منزلةَ القلمِ واليدِ في حقِّ المنعمِ بالتوقيعِ ، فإنَّهُ لا يشكرُ القلمَ ولا اليدَ ولا يغضبُ عليهما ، بلْ يراهما آلتينِ مسخَّرتينِ وواسطتينِ . . فقدْ صارَ موقناً بالمعنى

الثاني ، وهوَ الأشرفُ ، وهوَ ثمرةُ اليقينِ الأوَّلِ وروحُهُ وفائدتُهُ .

ومهما تحقَّقَ أنَّ الشمسَ والقمرَ والنجومَ والجمادَ والنباتَ والحيوانَ وكلَّ مخلوقٍ فهيَ مسخراتٌ بأمرِهِ حسَبَ تسخُّرِ القلمِ في يدِ الكاتبِ ، وأنَّ القدرةَ الأزليَّةَ هيَ المصدرُ للكلِّ . . استولىٰ علىٰ قلبِهِ غلبةُ التوكُّلِ والرضا والتسليمُ[1] ، وصارَ موقناً بريئاً مِنَ الغضبِ والحقدِ والحسدِ وسوءِ الخلقِ ، فهـٰذا أحدُ أبوابِ اليقينِ .

ومِنْ ذلكَ الثقةُ بضمانِ اللهِ سبحانَهُ بالرزقِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ، واليقينُ بأنَّ ذلكَ يأتيهِ ، وأنَّ ما قُدِّرَ لهُ سينساقُ إليهِ ، ومهما غلبَ ذلكَ علىٰ قلبِهِ . . كانَ مجمِلاً في الطلبِ ، ولمْ يشتدَّ حرصُهُ وشرهُهُ وتأسُّفُهُ علىٰ ما يفوتُهُ ، وأثمرَ هـٰذا اليقينُ أيضاً جملةً مِنَ الطاعاتِ والأخلاقِ الحميدةِ .

ومِنْ ذلكَ أنْ يغلبَ علىٰ قلبِهِ أنَّ مَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً . . يرَهُ ، ومَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ شراً . . يرَهُ : وهوَ اليقينُ بالثوابِ والعقابِ ، حتَّىٰ يرىٰ نسبةَ الطاعاتِ إلى الثوابِ كنسبةِ الخبزِ إلى الشبعِ ، ونسبةَ المعاصي إلى العقابِ كنسبةِ السمومِ والأفاعي إلى الهلاكِ ، فكما يحرِصُ على التحصيلِ للخبزِ طلباً للشبعِ فيحفظُ قليلَهُ وكثيرَهُ . . فكذلكَ يحرِصُ على الطاعاتِ كلِّها قليلِها وكثيرِها ، وكما يتجنَّبُ قليلَ السمومِ وكثيرَها . . فكذلكَ يجتنبُ

---

(١) وهـٰذه الثلاثة من مقامات اليقين التسعة علىٰ ما يأتي بيانها في مواضعها .

المعاصيَ ؛ قليلَها وكثيرَها ، وصغيرَها وكبيرَها .

واليقينُ بالمعنى الأوَّلِ قدْ يوجدُ لعمومِ المؤمنينَ ، أمَّا بالمعنى الثاني . . فيختصُّ بهِ المقربونَ .

وثمرةُ هٰذا اليقينِ : صدْقُ المراقبةِ في الحركاتِ والسكناتِ والخطراتِ ، والمبالغةُ في التقوىٰ ، والاحترازُ عنِ كلِّ السيئاتِ ، وكلَّما كانَ اليقينُ أغلبَ . . كانَ الاحترازُ أشدَّ والتشمُّرُ أبلغَ .

ومِنْ ذلكَ اليقينُ بأنَّ اللهَ تعالىٰ مطلعٌ عليكَ في كلِّ حالٍ ، ومشاهدٌ لهواجسِ ضميرِكَ وخفايا خواطرِكَ وفكرِكَ : وهٰذا متيقَّنٌ عندَ كلِّ مؤمنٍ بالمعنى الأولِ ، وهوَ عدمُ الشكِّ ، وأمَّا بالمعنى الثاني ـ وهوَ المقصودُ ـ فهوَ عزيزٌ يختصُّ بهِ الصدِّيقونَ .

وثمرتُهُ : أنْ يكونَ الإنسانُ في خلوتِهِ متأدباً في جميعِ أحوالِهِ وأعمالِهِ ؛ كالجالسِ بمشهَدِ ملكٍ معظَّمٍ ينظرُ إليهِ ، فإنَّه لا يزالُ مطرقاً متأدِّباً في جميعِ أعمالِهِ ، متماسكاً محترزاً عنْ كلِّ حركةٍ تخالفُ هيئةَ الأدبِ ، ويكونُ في فكرتِهِ الباطنةِ كهوَ في أعمالِهِ الظاهرةِ[1] ؛ إذْ يتحقَّقُ أنَّ اللهَ تعالىٰ مطلعٌ علىٰ سريرتِهِ كما يطلعُ الخلقُ علىٰ ظاهرِهِ ، فتكونُ مبالغتُهُ في عمارةِ باطنِهِ وتطهيرِهِ وتزيينِهِ لعينِ اللهِ تعالىٰ الكالئةِ أشدَّ مِنْ مبالغتِهِ في تزيينِ ظاهرِهِ لسائرِ الناسِ .

---

(١) أي : تكون أعماله الظاهرة مساوية لأعماله الباطنة في صدق الإخلاص والخضوع للمولىٰ بحيث لا يميز أحدهما عن الآخر . « إتحاف » (١/ ٤١٨) .

وهـٰذا المقامُ في اليقينِ يورثُ الحياءَ والخوفَ والانكسارَ ، والذلَّ والاستكانةَ والخضوعَ ، وجملةً منَ الأخلاقِ المحمودةِ ، وهـٰذهِ الأخلاقُ تورثُ أنواعاً مِنَ الطاعاتِ رفيعةً .

فاليقينُ في كلِّ بابٍ مِنْ هـٰذهِ الأبوابِ مثلُ الشجرةِ ، وهـٰذهِ الأخلاقُ في القلبِ مثلُ الأغصانِ المتفرِّعةِ منها ، وهـٰذهِ الأعمالُ والطاعاتُ الصادرةُ مِنَ الأخلاقِ كالثمارِ والأنوارِ المتفرِّعةِ مِنَ الأغصانِ ، فاليقينُ هوَ الأصلُ والأساسُ ، ولهُ مجارٍ وأبوابٌ أكثرُ ممَّا عدَّدْناهُ ، وسيأتي ذلكَ في ربعِ المنجياتِ ، وهـٰذا القدرُ كافٍ في تفهيمِ معنى اللفظِ الآنَ .

ومنها : أنْ يكونَ حزيناً منكسراً مطرقاً صامتاً : يظهرُ أثرُ الخشيةِ علىٰ هيئتِهِ وكسوتِهِ[1] ، وسيرتِهِ ، وحركتِهِ وسكونِهِ ، ونطقِهِ وسكوتِهِ ، لا ينظرُ إليهِ ناظرٌ إلا وكانَ نظرُهُ مذكِّراً للهِ تعالىٰ ، وكانتْ صورتُهُ دليلاً علىٰ عملِهِ ، فالجوادُ عينُهُ فِرارُهُ[2] ، فعلماءُ الآخرةِ يُعرفونَ بسيماهُمْ في السكينةِ والذلَّةِ والتواضعِ .

---

(١) بألا تكون من ثياب الشهرة ، ولا رفيعة الأثمان ، ولا من دقِّ الثياب ؛ فإن كل ذلك ليست من ثياب علماء الآخرة . « إتحاف » (١/ ٤١٨) .

(٢) مثلٌ يضرب لمن يدل ظاهره علىٰ باطنه ، **والفرار** ـ بتثليث الفاء ـ : النظر في أسنان الدابة أو في أوصافها لتعرف .

وقدْ قيلَ : ما ألبسَ اللهُ تعالىٰ عبداً لِبْسةً أحسنَ مِنْ خُشوعٍ في سكينةٍ ، فهيَ لِبسةُ الأنبياءِ ، وسِيما الصالحينَ والصدِّيقينَ والعلماءِ .

فأمَّا التهافتُ في الكلامِ والتشدُّقُ ، والاستغراقُ في الضحكِ ، والحدَّةُ في الحركةِ والنطقِ[1] . . فكلُّ ذلكَ مِنَ آثارِ البطرِ ، والأمنِ والغفلةِ عَنْ عظيمِ عقابِ اللهِ تعالىٰ وشديدِ سخطِهِ ، وهوَ دأبُ أبناءِ الدنيا الغافلينَ عَنِ اللهِ دونَ العلماءِ بهِ .

وهٰذا لأنَّ العلماءَ ثلاثةٌ كما قالَ سهلٌ التُّسْتَريُّ رحمهُ اللهُ : (عالمٌ بأمرِ اللهِ لا بأيامِ اللهِ ؛ وهُمُ المُفْتُونَ في الحلالِ والحرامِ ، وهٰذا العلمُ لا يورثُ الخشيةَ ، وعالمٌ باللهِ لا بأمرِ اللهِ ولا بأيامِ اللهِ ؛ وهُمْ عمومُ المؤمنينَ ، وعالمٌ باللهِ وبأيامِ اللهِ وبأمرِ اللهِ ؛ وهُمُ الصدِّيقونَ)[2] ، والخشيةُ والخشوعُ إنَّما تغلبُ عليهِمْ .

وأرادَ بأيامِ اللهِ أنواعَ عقوباتِهِ الغامضةِ ونعمِهِ الباطنةِ التي أفاضَها على القرونِ السالفةِ واللاحقةِ .

فمَنْ أحاطَ علمُهُ بذلكَ . . عَظُمَ خوفُهُ وظَهَرَ خشوعُهُ .

قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (تعلَّموا العلمَ ، وتعلَّموا للعلمِ السكينةَ والوقارَ والحلمَ ، وتواضعُوا لمَنْ تتعلَّمونَ منهُ ، وليتواضعْ لكُمْ مَنْ يتعلَّمُ منكُمْ ،

---

(١) **الحدَّة** : العجلة .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٤٠) بنحوه .

ولا تكونوا مِنْ جبابرةِ العلماءِ ، فلا يقومُ علمُكُمْ بجهلِكُمْ)[1] .

ويقالُ : ما آتى اللهُ عبداً علماً إلا آتاهُ معَهُ حلماً وتواضعاً وحسنَ خلقٍ ورفقاً ، فذلكَ هوَ العلمُ النافعُ[2] .

وفي الأثرِ : (مَنْ آتاهُ اللهُ علماً وزهداً وتواضعاً وحسنَ خلقٍ . . فهوَ إمامُ المتقينَ)[3] .

وفي الخبرِ : « إنَّ مِنْ خيارِ أمَّتي قوماً يضحكونَ جهراً مِن سَعَةِ رحمةِ اللهِ ، ويبكون سِرّاً مِنْ خوفِ عذابِهِ ، أبدانُهُمْ في الأرضِ وقلوبُهُمْ في السماءِ ، أرواحُهُمْ في الدنيا وعقولُهُمْ في الآخرةِ ، يتمشَّونَ بالسكينةِ ، ويتقرَّبُونَ بالوسيلةِ »[4] .

وقالَ الحسنُ : (الحلْمُ وزيرُ العلمِ ، والرفْقُ أبوهُ ، والتواضعُ سِرْبالُهُ)[5] .

وقالَ بشرُ بنُ الحارثِ : (مَنْ طلبَ الرئاسةَ بالعلمِ . . فتقرَّبْ إلى اللهِ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١١٩٧) ، وكذا في « قوت القلوب » (١/ ١٤٠) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٤٢٠) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٤١) وأتبعه بالأثر الآتي ليؤكد معناه .

(٣) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١/ ٤٢٠) : (هكذا أورده صاحب « القوت » ، وتبعه المصنف ، ولم يتعرض له العراقي ، ولا وجدته في غير كتاب « القوت ») .

(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ١٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٤٩) .

(٥) قوت القلوب (١/ ١٤١) .

تعالىٰ ببغضِهِ ؛ فإنَّهُ مقيتٌ في السماءِ والأرضِ)[1] .

ورُوِيَ في الإسرائيلياتِ : أنَّ حكيماً صنَّفَ ثلاثَ مئةٍ وستينَ مصحفاً في الحكمةِ حتَّىٰ وُصِفَ بالحكيمِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّهِمْ : قلْ لفلانٍ : ملأتَ الأرضَ نفاقاً ولمْ تردني بشيءٍ مِنْ ذلكَ ، وإنِّي لا أقبلُ مِنْ نفاقِكَ شيئاً ، فندمَ الرجلُ وتركَ ذلكَ ، وخالطَ العامَّةَ ، ومشىٰ في الأسواقِ ، وواكلَ بني إسرائيل ، وتواضعَ في نفسِهِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّهِمْ : قلْ لهُ : الآنَ وافقتَ رضائي[2] .

وحكَى الأوزاعيُّ رحمهُ اللهُ عنْ بلالِ بنِ سعدٍ أنَّهُ كانَ يقولُ : (ينظرُ أحدُكُمْ إلى الشرطيِّ فيستعيذُ باللهِ منهُ ، وينظرُ إلىٰ علماءِ الدنيا المتصنِّعينَ للخلقِ المتشوِّفينَ إلى الرئاسةِ فلا يمقتُهُمْ، وهُمْ أحقُّ بالمقْتِ مِنْ ذلكَ الشرطيِّ)[3] .

ورُوِيَ أنَّهُ قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ قالَ : « اجتنابُ المحارمِ ، ولا يزالُ فُوكَ رَطباً مِنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ » ، قيلَ : فأيُّ الأصحابِ خيرٌ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صاحبٌ إنْ ذَكرتَ . . أعانَكَ ، وإنْ نسيتَ . . ذَكَّرَكَ » ، قيلَ : فأيُّ الأصحابِ شرٌّ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صاحبٌ إنْ نسيتَ . . لمْ يذكرْكَ ، وإنْ ذكرتَ . . لمْ يُعِنْكَ » ، قيلَ : فأيُّ الناسِ أعلمُ ؟ قالَ : « أشدُّهُم للهِ خشيةً » ، قالوا : فأخبرنا بخيارِنا . .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤١) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٤١) ، وأصله في « الحلية » (٥/ ٢٣٧) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٤١) .

نجالسْهُمْ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الذين إذا رُؤوا . . ذُكِرَ اللهُ تعالىٰ » ، قالوا : فأيُّ الناسِ شرٌّ ؟ قالَ : « اللهُمَّ ؛ غَفْراً » ، قالوا : أخبرْنا يا رسولَ الله ، قالَ : « العلماءُ إذا فسدوا »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أكثرَ الناسِ أماناً يومَ القيامةِ أكثرُهُمْ فِكراً في الدنيا ، وأكثرَ الناسِ ضحكاً في الآخرةِ أكثرُهم بكاءً في الدنيا ، وأشدَّ الناسِ فرحاً في الآخرةِ أطولُهُمْ حزناً في الدنيا »[2] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في خطبتِهِ : (ذمَّتِي رهينةٌ وأنا بهِ زعيمٌ ، إنَّهُ لا يهيجُ على التقوىٰ زرعُ قومٍ ، ولا يظمَأُ على الهدىٰ سِنْخُ أصلٍ ، وإنَّ أجهلَ الناسِ مَنْ لا يعرفُ قدْرَهُ ، وإنَّ أبغضَ الخلْقِ إلى اللهِ تعالىٰ رجلٌ قَمَشَ علماً أغارَ بهِ في أغباشِ الفتنةِ ، سمَّاه أشباهٌ لهُ مِنَ الناسِ وأرذالُهُمْ عالماً ، ولمْ يُعْنَ في العلْمِ يوماً سالماً ، بكَّرَ فاستكثرَ ، فما قلَّ منهُ خيرٌ ممَّا كَثُرَ ، حتَّىٰ إذا ارتوىٰ مِنْ ماءٍ آجنٍ ، وأكثرَ مِنْ غيرِ طائلٍ . . جلسَ للناسِ مفتياً لتخليصِ ما التبسَ علىٰ غيرِهِ ، فإنْ نزلتْ بهِ إحدى المهمَّاتِ . . هيَّأَ حشْوَ الرأْيِ مِنْ رأيِهِ ، فهوَ مِنْ قطْعِ الشبهاتِ في مثلِ غزْلِ العنكبوتِ ، لا يدري أخطأَ أمْ أصابَ ، ركَّابُ جهالاتٍ ، خبَّاطُ عشواتٍ ، لا يعتذرُ ممَّا لا يعلمُ

---

(١) رواه صاحب « القوت » (١/ ١٤٢) قال : (وقد روينا حديثاً حسناً مقطوعاً ، عن سفيان ، عن مالك بن مغول قال . . .) وذكره . انظر « الإتحاف » (١/ ٤٢٢) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٩٣) بنحوه ، ولفظ المصنف عند صاحب « القوت » (١/ ١٥٢) .

فيسلَمُ ، ولا يعضُّ على العلْمِ بضرسٍ قاطعٍ فيغنمُ ، تبكي منهُ الدماءُ ، وتُستحلُّ بقضائِهِ الفروجُ الحرامُ ، لا مَلِيءٌ واللهِ بإصدارِ ما وردَ عليهِ ، ولا هوَ أهلٌ لما فُوِّضَ إليهِ ، أولئكَ الذينَ حلَّتْ عليهمُ المَثُلاتُ ، وحقَّتْ عليهِمُ النياحةُ والبكاءُ أيامَ حياةِ الدنيا)[1] .

وقالَ عليٌّ أيضاً رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا سمعتُمُ العلمَ . . فاكظِمُوا عليهِ ولا تخلِطُوهُ بهزْلٍ فتمجَّهُ القلوبُ)[2] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (العالمُ إذا ضَحِكَ ضَحْكَةً . . مَجَّ مِنَ العلمِ مَجَّةً)[3] .

وقيلَ : (إذا جمعَ المعلِّمُ ثلاثاً . . تمَّتِ النعمةُ بهِ على المتعلِّمِ : الصبرَ ، والتواضعَ ، وحسنَ الخلقِ ، وإذا جمعَ المتعلِّمُ ثلاثاً . . تمتِ النعمةُ بهِ على المعلِّمِ : العقلَ ، والأدبَ ، وحسنَ الفهمِ)[4] .

وعلى الجملةِ : فالأخلاقُ التي وردَ بها القرآنُ لا ينفكُّ عنها علماءُ

---

(١) رواه وكيع في « أخبار القضاة » (١/ ٣٢) ، وابن قتيبة في « عيون الأخبار » (١/ ٦٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/ ٥٠٤) كلهم بنحوه ، وهو في « القوت » (١/ ١٤٢) ، **ويهيج** : ييبس ويصفر ، **والسَّنْخ** : الأصل من كل شيء ، **وقمشَ** : جَمَعَ ، **وأغباش** : جمع غَبْش ، وهي الظلمة آخر الليل .

(٢) رواه البيهقي في « المدخل » (٣٨٨) ، **وتمجّه** : تلفظه وتأباه .

(٣) رواه الدارمي في « سننه » (٦٠٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٣٣) عن علي بن حسين رحمه الله ، ونسبه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٩٤٠) لسيدنا علي من تتمة القول السابق .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٤٥) .

الآخرةِ ؛ لأنَّهمْ يتعلمونَ القرآنَ للعملِ لا للرئاسةِ .

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : (لقدْ عشْنا برهةً مِنَ الدهرِ وإنَّ أحدَنا يُؤْتى الإيمانَ قبلَ القرآنِ ، وتَنزِلُ السُّورةُ فيتعلَّمُ حلالَها وحرامَها ، وآمرَها وزاجرَها ، وما ينبغي أنْ يقفَ عندَهُ منها ، ولقدْ رأيتُ رجالاً يُؤتىٰ أحدُهُمُ القرآنَ قبلَ الإيمانِ ، فيقرأُ ما بينَ فاتحتِهِ إلىٰ خاتمتِهِ لا يدري ما آمرُهُ وما زاجرُهُ ، وما ينبغي أنْ يقفَ عندَهُ ، يَنثرُهُ نثْرَ الدَّقَلِ)[1] .

وفي خبرٍ آخرَ بمثلِ معناهُ : (كنَّا ـ أصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ أوتينا الإيمانَ قبلَ القرآنِ ، وسيأتي بعدَكُمْ قومٌ يُؤتَونَ القرآنَ قبلَ الإيمانِ ، يُقيمونَ حروفَهُ ويضيِّعُونَ حدودَهُ ، يقولونَ : قرأْنا فَمَنْ أقرأُ مِنَّا ؟ وعَلِمْنا فَمَنْ أعلمُ منَّا ؟ فذلكَ حظُّهُمْ) ، وفي لفظٍ آخرَ : (أولئكَ شرارُ هـٰذهِ الأمَّةِ)[2] .

وقيلَ : خمسٌ مِنَ الأخلاقِ هيَ مِنْ علاماتِ علماءِ الآخرةِ مفهومةٌ مِنْ خمْسِ آياتٍ مِنْ كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ : الخشيةُ ، والخشوعُ ، والتواضعُ ، وحسنُ الخلقِ ، وإيثارُ الآخرةِ على الدنيا وهوَ الزهدُ :

أمَّا الخشيةُ : فمِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ١٢٠) ، **الدَّقَل** : أردأ التمر .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٤٥) ، وأصله عند ابن ماجه (٦١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ١٢٠) .

وأمَّا الخشوعُ : فمِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ .

وأمَّا التواضعُ : فمِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وأمَّا حسنُ الخلقِ : فمِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ .

وأمَّا الزهدُ : فمِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾[1] .

ولمَّا تلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ فقيلَ لهُ : ما هٰذا الشَّرْحُ ؟ فقالَ : « إنَّ النورَ إذا قُذِفَ في القلبِ . . انشرحَ لهُ الصدرُ وانفسحَ » ، قيلَ : فهلْ لذلكَ مِنْ علامةٍ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعمِ ؛ التجافي عَنْ دارِ الغرورِ ، والإنابةُ إلىٰ دارِ الخلودِ ، والاستعدادُ للموتِ قبلَ نزولِهِ »[2] .

ومنها : أنْ يكونَ أكثرُ بحثِهِ عَنْ علْمِ الأعمالِ ، وعمَّا يفسدُها ويشوِّشُ القلوبَ ، ويهيِّجُ الوسواسَ ويثيرُ الشرَّ : فإنَّ أصلَ الدينِ التوقِّي مِنَ الشرِّ ،

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤٦) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٦٨) .

ولذلكَ قيلَ[1] : [من الهزج]

عَـــرَفْـــتُ ٱلشَّـــرَّ لا لِلشَّـــرِّ لَكِـــــنْ لِتَـــــوَقِّيـــــهِ
وَمَـــنْ لا يَعْـــرِفُ ٱلشَّـــرَّ مِـــنَ ٱلنَّـــاسِ يَقَـــعْ فِيـــهِ

ولأنَّ الأعمالَ الفعليةَ قريبةٌ ، وأقصاها بلْ أعلاها المواظبةُ علىٰ ذكْرِ اللهِ تعالىٰ بالقلبِ واللسانِ ، وإنَّما الشأنُ في معرفةِ ما يفسدُها ويشوِّشُها ، وهٰذا ممَّا تكثرُ شعبُهُ ويطولُ تفريعُهُ ، وكلُّ ذلكَ ممَّا يغلبُ مسيسُ الحاجةِ إليهِ ، وتعمُّ بهِ البلوىٰ في سلوكِ طريقِ الآخرةِ .

وأمَّا علماءُ الدنيا : فإنَّهمْ يتبعونَ غرائبَ التفريعاتِ في الحكوماتِ والأقضيةِ ، ويَتْعبونَ في وضعِ صورٍ تنقضي الدهورُ ولا تقعُ أبداً ، وإنْ وقعتْ . . فإنَّما تقعُ لغيرِهِمْ لا لهُمْ ، وإذا وقعتْ . . كانَ في القائمينَ بها كثرةٌ ، ويتركونَ ما يلازمُهُمْ ويتكرَّرُ عليهِمْ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ ، في خواطرِهِمْ ووساوسِهِمْ وأعمالِهِمْ .

وما أبعدَ عنِ السعادةِ مَنْ باعَ مهمَّ نفسِهِ اللازمَ بمهمِّ غيرِهِ النادرِ ؛ إيثاراً للقبولِ والتقرُّبِ مِنَ الخلقِ على القرْبِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وشَرَهاً في أنْ يسمِّيَهُ البطَّالونَ مِنْ أبناءِ الدنيا فاضلاً محقِّقاً عالماً بالدقائقِ !

وجزاؤُهُ مِنَ اللهِ ألاّ ينتفعَ في الدنيا بقبولِ الخلْقِ ، بلْ يتكدَّرُ عليهِ صفوُهُ بنوائبِ الزمانِ ، ثمَّ يردُ القيامةَ مفْلساً متحسِّراً علىٰ ما يشاهدُهُ مِنْ ربْحِ

---

(١) البيتان لأبي فراس الحمداني في « ديوانه » (ص٣٥٢) .

العاملينَ وفوزِ المقرَّبينَ ، وذلكَ هوَ الخسرانُ المبينُ .

ولقدْ كانَ الحسنُ البصريُّ رحمَهُ اللهُ أشبهَ الناسِ كلاماً بكلامِ الأنبياءِ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ ، وأقربَهُمْ هَدْياً مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ[1] ، اتفقتِ الكلمةُ في حقِّهِ علىٰ ذلكَ ، وكانَ أكثرُ كلامِهِ في خواطرِ القلوبِ ، وفسادِ الأعمالِ ، ووساوسِ النفوسِ ، والصفاتِ الخفيَّةِ الغامضةِ مِنْ شهواتِ النفسِ .

وقدْ قيلَ لهُ : يا أبا سعيدٍ ؛ إنَّكَ تتكلَّمُ بكلامٍ لا يُسمعُ مِنْ غيرِكَ ، فمِنْ أينَ أخذتَهُ ؟ قالَ : مِنْ حذيفةَ بنِ اليمانِ[2] .

وقيلَ لحذيفةَ : نراكَ تتكلَّمُ بكلامٍ لا يُسمعُ مِنْ غيرِكَ مِنَ الصحابةِ ، فمنْ أينَ أخذتَهُ ؟ قالَ : خصَّني بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، كانَ الناسُ يسْألونَهُ عنِ الخيرِ وكنتُ أسْأَلُهُ عنِ الشرِّ مخافةَ أنْ أقعَ فيهِ ، وعَلِمتُ أنَّ الخيرَ لا يسبقني[3] .

وقالَ مرَّةً : فعلمتُ أنَّ مَنْ لا يعرفُ الشرَّ لا يعرفُ الخيرَ ، وفي لفظٍ آخرَ : كانَ الناسُ يقولونَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما لِمَنْ عملَ كذا وكذا ؟ يسألونَهُ عنْ فضائلِ الأعمالِ ، وكنتُ أقولُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما يفسدُ كذا وكذا ؟ فلما رآني أسألُهُ عنْ آفاتِ الأعمالِ . . خصَّني بهٰذا العلمِ .

---

(١) هدْياً : سيرةً وطريقاً ؛ يقال : هُدِي هدْيَ فلان ؛ أي : سار سيرته .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٥٠) .

(٣) رواه البخاري (٣٦٠٦) ، ومسلم (١٨٤٧) بأصله ، وألفاظه هنا وردت بسياقها في « القوت » (١/ ١٥٠) .

وكانَ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ أيضاً قدْ خُصَّ بعلْمِ المنافقينَ ، وأُفرِدَ بمعرفةِ عِلْمِ النفاقِ وأسبابِهِ ودقائقِ الفتنِ ، فكانَ عمرُ وعثمانُ وأكابرُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ يسألونَهُ عنِ الفتنِ العامَّةِ والخاصَّةِ .

وكانَ يُسألُ عنِ المنافقينَ فيخبرُ بأعدادِ مَنْ بقيَ منهُمْ ، ولا يخبرُ بأساميهِمْ[1] .

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يسألُهُ عنْ نفسِهِ : هلْ يعلمُ بهِ شيئاً مِنَ النفاقِ ؟ فبرَّأَهُ مِنْ ذلكَ[2] .

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ إذا دُعيَ إلىٰ جنازةٍ ليصلِّيَ عليها . . نظرَ : فإنْ حضرَ حذيفةُ . . صلَّىٰ عليها ، وإلا . . تركَ .

وكانَ يُسمَّىٰ : صاحبَ السِّرِّ[3] .

فالعنايةُ بمقاماتِ القلبِ وأحوالِهِ هوَ دأبُ علماءِ الآخرةِ ؛ لأنَّ القلبَ هوَ الساعي إلىٰ قرْبِ اللهِ تعالىٰ .

وقدْ صارَ هـٰذا الفنُّ غريباً مندرساً ، وإذا تعرَّضَ العالمُ لشيءٍ منهُ . . استُغربَ واستُبعدَ ، وقيلَ : هـٰذا تزويقُ المذكِّرينَ ، فأينَ التحقيقُ ؟ ويرونَ التحقيقَ في دقائقِ المجادلاتِ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٥٠) .

(٢) رواه وكيع في « الزهد » (٤٧٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢/ ٢٧٦) بنحوه .

(٣) رواه البخاري (٣٧٤٣) .

ولقدْ صدقَ مَنْ قالَ[1] : [من البسيط]

اَلطُّرْقُ شَتَّىٰ وَطُرْقُ ٱلْحَقِّ مُفْرَدَةٌ وَٱلسَّالِكُونَ طَرِيقَ ٱلْحَقِّ أَفْرَادُ
لاَ يُعْرَفُونَ وَلاَ تُدْرَىٰ مَقَاصِدُهُمْ فَهُمْ عَلَىٰ مَهَلٍ يَمْشُونَ قُصَّادُ
وَٱلنَّاسُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ فَجُلُّهُمْ عَنْ سَبِيلِ ٱلْحَقِّ رُقَّادُ

وعلى الجملةِ : فلا يميلُ أكثرُ الخلْقِ إلا إلى الأسهلِ والأوفقِ لطباعِهِمْ ؛ فإنَّ الحقَّ مرٌّ ، والوقوفَ عليهِ صعبٌ ، وإدراكَهُ شديدٌ ، وطريقَهُ مستوعرٌ ، ولا سيما معرفةُ صفاتِ القلبِ وتطهيرِهِ عنِ الأخلاقِ المذمومةِ ؛ فإنَّ ذلكَ نزْعٌ للروحِ على الدوامِ ، وصاحبُهُ يُنزَّلُ منزلةَ شاربِ الدواءِ يصبرُ علىٰ مرارتِهِ رجاءَ الشفاءِ ، ويُنزَّلُ منزلةَ مَنْ جعلَ مدَّةَ العمرِ صومَهُ ، فهوَ يقاسي الشدائدَ ليكونَ فطرُهُ عندَ الموتِ ، ومتىٰ تكثرُ الرغبةُ في مثلِ هـٰذا الطريقِ ؟!

ولذلكَ قيلَ : إنَّهُ كانَ في البصرةِ مئةٌ وعشرونَ متكلِّماً في الوعظِ والتذكيرِ ، ولمْ يكنْ مَنْ يتكلَّمُ في علمِ اليقينِ وأحوالِ القلوبِ وصفاتِ الباطنِ إلا ثلاثةٌ : سهلٌ التُّسْتَرِيُّ ، والصُّبيحيُّ ، وعبدُ الرحيمِ[2] ، وكانَ يجلسُ إلىٰ أولئكَ الخلقُ الكثيرُ الذي لا يُحصىٰ ، وإلىٰ هؤلاءِ عددٌ يسيرٌ قلَّما يجاوزُ العشرةَ ؛ لأنَّ النفيسَ العزيزَ لا يصلحُ إلا لأهلِ الخصوصِ ، وما يُبذلُ للعمومِ فأمرُهُ قريبٌ .

❀ ❀ ❀

(١) هو عبد الواحد بن زيد ، كما في « القوت » (١/ ١٥٣) ، و« تاريخ بغداد » (٥/ ٢٣١) .
(٢) ابن يحيى الأسود ، والنص في « قوت القلوب » (١/ ١٥٦) .

ومنها : أنْ يكونَ اعتمادُهُ في علومِهِ علىٰ بصيرتِهِ وإدراكِهِ بصفاءِ قلبِهِ ، لا على الصحُفِ والكتبِ ، ولا علىٰ تقليدِ ما يسمعُهُ مِنْ غيرِهِ : وإنَّما المقلَّدُ صاحبُ الشرعِ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ فيما أمرَ بهِ وقالَهُ ، وإنَّما يُقلَّدُ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ مِنْ حيثُ إنَّ فعلَهُمْ يدلُّ علىٰ سماعِهِمْ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

ثمَّ إذا قلَّدَ صاحبَ الشرعِ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ في تلقي أقوالِهِ وأفعالِهِ بالقبولِ . . فينبغي أنْ يكونَ حريصاً علىٰ فهْمِ أسرارِهِ ؛ فإنَّ المقلِّدَ إنَّما يفعلُ الفعلَ لأنَّ صاحبَ الشرعِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فعلَهُ ، وفعلُهُ لا بدَّ وأنْ يكونَ لسرٍّ فيهِ ، فينبغي أنْ يكونَ شديدَ البحثِ عنْ أسرارِ الأعمالِ والأقوالِ ؛ فإنَّهُ إنِ اكتفىٰ بحفظِ ما يُقالُ . . كانَ وعاءً للعلمِ ولمْ يكنْ عالماً ، ولذلكَ كانَ يُقالُ : فلانٌ مِنْ أوعيةِ العلمِ ، وكانَ لا يُسمَّىٰ عالماً إذا كانَ شأنَهُ الحفظُ مِنْ غيرِ اطلاعٍ على الحِكَمِ والأسرارِ .

ومَنْ كُشِفَ عنْ قلبِهِ الغطاءُ واستنارَ بنورِ الهدايةِ . . صارَ في نفسِهِ متبوعاً مقلَّداً ، فلا ينبغي أنْ يقلِّدَ غيرَهُ[1] ، ولذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (ما مِنْ أحدٍ إلا يُؤخذُ مِنْ علمِهِ ويُتْرَكُ إلا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) لأن الفقيه في العلماء هو الفقيه بفقه علمه وقلبه ، لا بحديث سواه ، ومثل العالم بعلم غيره مثل الواصف لأحوال الصالحين العارف بمقامات الصديقين ولا حال له ولا مقام . . . ، فمثله كما قال تعالىٰ : ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ . « إتحاف » (١/ ٤٣٢) .

وسلَّمَ)[1] وقدْ كانَ تعلَّمَ مِنْ زيدِ بنِ ثابتٍ الفقهَ ، وقرأَ علىٰ أبَيِّ بنِ كعبٍ ، ثمَّ خالفَهُما في الفقهِ والقراءةِ جميعاً .

وقالَ بعضُ السلفِ : (ما جاءنا عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . قبلناهُ على الرأسِ والعينِ ، وما جاءَنا عنِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ . . فنأخذُ منهُ ونتركُ ، وما جاءَنا عنِ التابعينَ . . فهُمْ رجالٌ ونحنُ رجالٌ)[2] .

وإنَّما فضلَ الصحابةُ لمشاهدتِهِمْ قرائنَ أحوالِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، واعتلاقِ قلوبِهِمْ أموراً أُدركتْ بالقرائنِ ، فسدَّدَهُمْ ذلكَ إلى الصوابِ مِنْ حيثُ لا يدخلُ في الروايةِ والعبارةِ ؛ إذْ فاضَ عليهِمْ مِنْ نورِ النبوَّةِ ما يحرسُهُمْ في الأكثرِ عنِ الخطأِ .

وإذا كانَ الاعتمادُ على المسموعِ مِنَ الغيرِ تقليداً غيرَ مرضيٍّ . . فالاعتمادُ على الكُتبِ والتصانيفِ أبعدُ ، بلِ الكتبُ والتصانيفُ محدَثَةٌ لمْ يكنْ شيءٌ منها في زمنِ الصحابةِ وصدْرِ التابعينَ ، وإنَّما حدثتْ بعدَ سنةِ مئةٍ وعشرينَ مِنَ الهجرةِ وبعدَ وفاةِ جميعِ الصحابةِ وجلَّةِ التابعينَ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، وبعدَ وفاةِ سعيدِ بنِ المسيَّبِ والحسنِ وخيارِ التابعينَ ، بلْ كانَ الأوَّلونَ يكرهونَ كَتْبَ الأحاديثِ وتصنيفَ الكتبِ ؛ لئلا يشتغلَ الناسُ بها عنِ الحفظِ وعنِ القرآنِ وعنِ التدبُّرِ والتفكُّرِ ، وقالوا : احفظوا كما كنَّا نحفظُ[3] .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٢٦٩) من حديثه مرفوعاً .

(٢) رواه البيهقي في « المدخل » (٢٢) عن أبي حنيفة رحمه الله تعالىٰ بنحوه .

(٣) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٦٣) عن الزهري قوله : (كنا نكره الكتب =

ولذلكَ كَرِهَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ وجماعةٌ مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ تصحيفَ القرآنِ في مصحفٍ ، وقالوا : كيفَ نفعلُ شيئاً لمْ يفعلْهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟! وخافوا اتكالَ الناسِ على المصاحفِ ، وقالوا : نتركُ القرآنَ يتلقَّاهُ بعضُهُمْ مِنْ بعضٍ بالتلقينِ والإقراءِ ؛ ليكونَ هوَ شغلَهُمْ وهَمَّهُمْ ، حتَّىٰ أشارَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ وبقيةُ الصحابةِ بكَتْبِ القرآنِ ؛ خوفاً مِنْ تخاذلِ الناسِ وتكاسلِهِمْ ، وحذراً مِنْ أنْ يقعَ نزاعٌ فلا يوجدَ أصلٌ يُرجعُ إليهِ في كلمةٍ أوْ قراءةٍ مِنَ المتشابهاتِ ، فانشرحَ صدرُ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ لذلكَ ، فجمعَ القرآنَ في مصحفٍ واحدٍ(١) .

وكانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ ينكرُ علىٰ مالكٍ تصنيفَهُ « الموطَّأُ » ، ويقولُ : ابتدعَ ما لمْ تفعلْهُ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ(٢) .

وقيلَ : أوَّلُ كتابٍ صُنِّفَ في الإسلامِ كتابُ ابنِ جريجٍ في الآثارِ ، وحروفُ التفاسيرِ عنْ مجاهدٍ وعطاءٍ وأصحابِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُمْ بمكَّةَ ، ثمَّ كتابُ مَعْمَرِ بنِ راشدٍ الصنعانيِّ باليمنِ ، جمعَ فيهِ سُنناً منثورةً مبوَّبةً ، ثمَّ كتابُ « الموطأُ » بالمدينةِ لمالكِ بنِ أنسٍ ، ثمَّ جامعُ سفيانَ الثوريِّ(٣) .

= حتىٰ أكرهنا عليه السلطان، فكرهنا أن نمنعه الناس)، وروي أنه كان أول من دوّن العلم.

(١) قوت القلوب (١/ ١٥٩) .

(٢) ولعل هـٰذا الإنكار كان في مبادىء أمره ، وإلا . . فقد جمع حديثه بنفسه على المسانيد ، وذلك لما رأى احتياج الناس لذلك . « إتحاف » (١/ ٤٣٤) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٥٩) ، وانظر « فتح الباري » (المقدمة/ ٦) .

ثمَّ في القرْنِ الرابعِ حدثتْ مصنَّفاتُ الكلامِ ، وكَثُرَ الخوضُ في الجدالِ ، والغوصُ في إبطالِ المقالاتِ ، ثمَّ مالَ الناسُ إليهِ وإلى القصصِ والوعظِ بها ، فأخذَ علمُ اليقينِ في الاندراسِ مِنْ ذلكَ الزمانِ ، فصارَ بعدَ ذلكَ يُستغربُ علمُ القلوبِ ، والتفتيشُ عَنْ صفاتِ النفْسِ ومكايدِ الشيطانِ ، وأعرضَ عَنْ ذلكَ إلا الأقلُّونَ ، فصارَ يُسمَّى المجادلُ المتكلِّمُ عالماً ، والقاصُّ المزخرفُ كلامَهُ بالعباراتِ المسجَّعةِ عالماً ، وهـٰذا لأنَّ العوامَّ هُمُ المستمعونَ إليهِمْ ، فكانَ لا يتميَّزُ لهُمْ حقيقةُ العلْمِ عنْ غيرِهِ ، ولمْ تكنْ سيرةُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ وعلومُهُمْ ظاهرةً عندَهُمْ ، حتَّىٰ كانوا يعرفونَ بها مباينةَ هؤلاءِ لهُمْ ، فاستمرَّ عليهِمُ اسمُ العلماءِ ، وتوارثَ اللقبَ خلفٌ عنْ سلفٍ ، وأصبحَ علمُ الآخرةِ مطويّاً ، وغابَ عنهُمُ الفرقُ بينَ العلمِ والكلامِ إلا عنِ الخواصِّ منهُمْ ؛ كانَ إذا قيلَ لهُمْ : فلانٌ أعلمُ أمْ فلانٌ ؟ . . يُقالُ : فلانٌ أكثرُ علماً ، وفلانٌ أكثرُ كلاماً ، فكانَ الخواصُّ يدركونَ الفرْقَ بينَ العلمِ وبينَ القدرةِ على الكلامِ .

هكذا ضَعُفَ الدينُ في قرونٍ سالفةٍ ، فكيفَ الظنُّ بزمانِكَ هـٰذا وقدِ انتهى الأمرُ إلىٰ أنَّ مُظهِرَ الإنكارِ يَسْتَهْدِفُ للنسبةِ إلى الجنونِ ؟!

فالأولىٰ أنْ يشتغلَ الإنسانُ بنفسِهِ ويسكتَ .

❁ ❁ ❁

ومنها : أنْ يكونَ شديدَ التوقي مِنْ محدثاتِ الأمورِ وإنِ اتفقَ عليها

الجمهورُ : فلا يغرَّنَّهُ إطباقُ الخلْقِ علىٰ ما أُحدثَ بعدَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، وليكنْ حريصاً على التفتيشِ عنْ أحوالِ الصحابةِ وسيرتِهِمْ وأعمالِهِمْ ، وما كانَ فيهِ أكثرُ همِّهِمْ : أكانَ في التدريسِ والتصنيفِ والمناظرةِ والقضاءِ والولايةِ وتولِّي الأوقافِ والوصايا ومالِ الأيتامِ ومخالطةِ السلاطينِ ومجاملتِهِمْ في العِشْرةِ ، أمْ كانَ في الخوفِ والحزنِ والتفكُّرِ والمجاهدةِ ومراقبةِ الباطنِ والظاهرِ واجتنابِ دقيقِ الإثمِ وجليلِهِ والحرصِ علىٰ إدراكِ خفايا شهواتِ النفسِ ومكايدِ الشيطانِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ علومِ الباطنِ ؟

واعلمْ تحقيقاً : أنَّ أعلمَ أهلِ الزمانِ وأقربَهُمْ إلى الحقِّ أشبهُهُمْ بالصحابةِ وأعرفُهُمْ بطريقِ السلفِ ، فمنهُمْ أُخِذَ الدينُ ، ولذلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (خيرُنا أتبعُنا لهـٰذا الدينِ) لمَّا أنْ قيلَ لهُ : خالفتَ فلاناً[1] .

فلا ينبغي أنْ يكترثَ بمخالفةِ أهلِ العصرِ في موافقةِ أهلِ عصرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّ الناسَ رأوا رأياً فيما هُمْ فيهِ لميلِ طباعِهِمْ إليهِ ، ولمْ تسمحْ نفوسُهُمْ بالاعترافِ بأنَّ ذلكَ سببُ الحرمانِ مِنَ الجنةِ ، فادَّعَوا أنَّه لا سبيلَ إلى الجنَّةِ سواهُ .

ولذلكَ قالَ الحسنُ : (محدثانِ أُحدثا في الإسلامِ : رجلٌ ذو رأيٍ سوءٍ زعمَ أنَّ الجنَّةَ لمنْ رأىٰ مثلَ رأيِهِ ، ومُتْرَفٌ يعبدُ الدنيا ، لها يغضبُ ولها

---

(١) رواه البزار كما في « البحر الزخار » (٨٧٧) .

يرضىٰ وإيَّاها يطلبُ ، فارفضوهُما إلى النارِ ، إنَّ رجلاً أصبحَ في هـٰذهِ الدنيا بينَ مترفٍ يدعوهُ إلىٰ دنياهُ ، وصاحبِ هوىً يدعوهُ إلىٰ هواهُ ، قدْ عصمَهُ اللهُ تعالىٰ منهما ، يحنُّ إلى السلفِ الصالحِ ، يسألُ عنْ أفعالِهِمْ ويقتصُّ آثارَهمْ . . متعرِّضٌ لأجرٍ عظيمٍ ، فكذلكَ كونوا)[1] .

وقدْ رُوِيَ عنِ ابنِ مسعودٍ موقوفاً ومسنداً أنَّهُ قالَ : « إنَّما هما اثنانِ : الكلامُ والهَدْيُ ، فأحسنُ الكلامِ كلامُ اللهِ تعالىٰ ، وأحسنُ الهدْيِ هديُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ألا وإيَّاكمْ ومحدثاتِ الأمورِ ؛ فإنَّ شرَّ الأمورِ محدثاتُها ، إنَّ كلَّ محدثةٍ بدعةٌ ، وإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ ، ألا لا يطولَنَّ عليكُمُ الأمدُ فتقسوَ قُلوبُكُمْ ، ألا كلُّ ما هوَ آتٍ قريبٌ ، ألا إنَّ البعيدَ ما ليسَ بآتٍ »[2] .

وفي خطبةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طُوبىٰ لمَنْ شغلَهُ عيبُهُ عنْ عيوبِ الناسِ ، وأنفقَ مِنْ مالٍ اكتسَبَهُ مِنْ غيرِ معصيةٍ ، وخالطَ أهلَ الفقهِ والحكمةِ ، وجانبَ أهلَ الزللِ والمعصيةِ ، طُوبَىٰ لمَنْ ذَلَّ في نفسِهِ وحسنتْ خليقتُهُ ، وصلحتْ سريرتُهُ ، وعَزَلَ عنِ الناسِ شرَّهُ ، طُوبىٰ لمَنْ عملَ بعلمِهِ وأنفقَ الفضْلَ مِنْ مالِهِ وأمْسَكَ الفضلَ مِنْ قولِهِ ، ووسعتْهُ السنَّةُ ولمْ يعدُها إلىٰ بدعةٍ »[3] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٦١) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٦) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٩) .

وكانَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (حُسنُ الهدْيِ في آخرِ الزمانِ خيرٌ مِنْ كثيرٍ مِنَ العملِ)[1] .

وقالَ : (أنتمْ في زمانٍ خيرُكُمْ فيهِ المسارعُ في الأمورِ ، وسيأتي بعدَكُمْ زمانٌ يكونُ خيرُهُمُ المتثبِّتَ المتوقِّفَ لكثرةِ الشبهاتِ)[2] .

وقدْ صدقَ ؛ فمَنْ لمْ يتثبَّتْ في هٰذا الزمانِ ووافقَ الجماهيرَ فيما همْ عليهِ ، وخاضَ فيما خاضوا . . هلكَ كما هلكوا .

وقالَ حذيفةُ : (أعجبُ مِنْ هٰذا أنَّ معروفَكُمُ اليومَ منكرُ زمانٍ قدْ مضىٰ ، وأنَّ منكرَكُمْ اليومَ معروفُ زمانٍ قدْ أتىٰ ، وإنَّكُمْ لا تزالون بخيرٍ ما عرفتمُ الحقَّ ، وكانَ العالمُ فيكُمْ غيرَ مُستخَفٍّ بهِ)[3] .

ولقدْ صدقَ ؛ فإنَّ أكثرَ معروفاتِ هٰذهِ الأعصارِ منكراتٌ في عصرِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ؛ إذْ مِنْ غررِ المعروفاتِ في زمانِنا تزيينُ المساجدِ وتنجيدُها ، وإنفاقُ الأموالِ العظيمةِ في دقائقِ عماراتِها ، وفرشُ البُسُطِ الرفيعةِ فيها .

ولقدْ كانَ يُعدُّ فرشُ البواري[4] في المسجدِ بدعةً ، وقيلَ : إنَّهُ مِنْ

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٧٨٩) بنحوه .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٦١) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٦١) ، وقد رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠/ ٩١) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه .

(٤) **البواري** : جمع البُوريِّ أو الباريا أو الباريَّة ؛ وهي الحصير المنسوج من قصب ، فارسية معرّبة .

محدثاتِ الحَجَّاجِ[1] ، فقدْ كانَ الأوَّلونَ قلَّما يجعلونَ بينَهُمْ وبينَ التراب حاجزاً[2] .

وكذلكَ الاشتغالُ بدقائقِ الجدَلِ والمناظرةِ مِنْ أجلِّ علومِ أهلِ الزمانِ ، ويزعمونَ أنَّهُ مِنْ أعظمِ القرباتِ ، وقدْ كانَ ذلكَ مِنَ المنكراتِ .

ومِنْ ذلكَ التلحينُ في القرآنِ والأذانِ[3] .

ومِنْ ذلكَ التعسُّفُ في النظافةِ والوسوسةُ في الطهارةِ ، وتقديرُ الأسبابِ البعيدةِ في نجاسةِ الثيابِ ، معَ التساهلِ في حلِّ الأطعمةِ وتحريمِها ، إلىٰ نظائرِ ذلكَ[4] .

ولقدْ صدقَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ قالَ : (أنتمُ اليومَ في زمانٍ الهوىٰ فيهِ تابعٌ للعلمِ ، وسيأتي عليكُمْ زمانٌ يكونُ العلمُ فيهِ تابعاً للهوىٰ)[5] .

وكانَ أحمدُ يقولُ : (تركوا العلمَ وأقبلوا على الغرائبِ ، ما أقلَّ الفقهَ فيهِمْ ، واللهُ المستعانُ)[6] .

---

(١) كما روي أن قتادة سجد ، فدخل في عينه قصبة وكان ضريراً ، فقال : لعن الله الحجاج ، ابتدع هٰذه البواري يؤذي بها المصلين . قوت القلوب (١/ ١٧١) .

(٢) ويستحبون السجود عليه تواضعاً لله تعالىٰ وتخشُّعاً وذلاً . « إتحاف » (١/ ٤٣٩) .

(٣) حتىٰ لا يفهم التلاوة ، وحتىٰ تجاوز إعراب القرآن والكلمة ، بمدِّ المقصور وقصر الممدود ، وإدغام المظهر وإظهار المدغم . « إتحاف » (١/ ٤٤٠) .

(٤) انظر « قوت القلوب » (١/ ١٦٣) ، و« الإتحاف » (١/ ٤٤٠) .

(٥) قوت القلوب (١/ ١٦٧) .

(٦) رواه الخطيب في « الكفاية » (٣٨٨) .

وقالَ مالكُ بنُ أنسٍ : (لمْ يكنِ الناسُ فيما مضىٰ يسألونَ عنْ هـٰذهِ الأمورِ كما يسألُ الناسُ اليومَ ، ولمْ يكنِ العلماءُ يقولونَ : حرامٌ ولا حلالٌ ، أدركتُهُمْ يقولونَ : مكروهٌ ومستحبٌ)[1] .

ومعناه : أنَّهمْ كانوا ينظرونَ في دقائقِ الكراهيةِ والاستحبابِ ، فأمَّا الحرامُ . . فكانَ فحشُهُ ظاهراً .

وكانَ هشامُ بنُ عروةَ يقولُ : (لا تسألوهُمُ اليومَ عمَّا أحدثوا ؛ فإنَّهمْ قدْ أعدُّوا لهُ جواباً ، ولكنْ سلوهُمْ عنِ السنَّةِ ؛ فإنَّهمْ لا يعرفونَها)[2] .

وكانَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ يقولُ : (لا ينبغي لمَنْ ألْهمَ شيئاً مِنَ الخيرِ أنْ يعملَهُ حتَّىٰ يسمعَ بهِ في الأثرِ ، فيحمدُ اللهَ تعالىٰ إذْ وافقَ ما في نفسِهِ)[3] .

وإنَّما قالَ هـٰذا لأنَّ ما أُبدِعَ مِنَ الآراءِ قدْ قَرَعَ الأسماعَ وعلِقَ بالقلوبِ ، فربَّما يشوِّشُ صفاءَ القلبِ ، فيُتخيَّلُ بسببِهِ الباطلُ حقّاً ، فيُحتاطُ فيهِ بالاستظهارِ بشهادةِ الآثارِ .

ولهـٰذا لما أحدثَ مروانُ المنبرَ في صلاةِ العيدِ عندَ المصلَّىٰ . . قامَ إليهِ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : يا مروانُ ؛ ما هـٰذهِ البدعةُ ؟ فقالَ : إنَّها ليستْ بدعةً ، إنَّها خيرٌ ممَّا تعلمُ ، إنَّ الناسَ قدْ كثروا ، فأردتُ أنْ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٦٧) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٦٧) .

(٣) رواه عنه ابنُ أبي حاتم في « تفسيره » (١٧٤٥١) ، وهو في « القوت » (١/ ١٦٧) .

يبلغَهُمُ الصوتُ ، فقالَ أبو سعيدٍ : واللهِ ؛ لا تأتونَ بخيرٍ ممَّا أعلمُ أبداً ، ووالله لا صليتُ وراءَكَ اليومَ[1] .

وإنَّما أنكرَ ذلكَ لأنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يتوكَّأُ في خطبةِ العيدِ والاستسقاءِ علىٰ قوسٍ أوْ عصاً ، لا على المنبرِ[2] .

وفي الحديثِ المشهورِ : « مَنْ أحدثَ في دينِنا ما ليسَ منهُ . . فهوَ ردٌّ »[3] .

وفي خبرٍ آخرَ : « مَنْ غَشَّ أمَّتِي . . فعليهِ لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعينَ » ، قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ وما غشُّ أمَّتِكَ ؟ قالَ : « أنْ يَبتدعَ بدعةً يحمِلُ الناسَ عليها »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ ملكاً ينادي كلَّ يومٍ : مَنْ خالفَ سنَّةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . لمْ تنلْهُ شفاعتُهُ »[5] .

ومثالُ الجاني على الدينِ بإبداعِ ما يخالفُ السنَّةَ بالنسبةِ إلىٰ مَنْ يُذْنِبُ ذنباً . . مثالُ مَنْ عصى المِلكَ في قلْبِ دولتِهِ[6] بالنسبةِ إلىٰ مَنْ خالفَ أمرَهُ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٦٨) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢/ ٢٤) ، وأصل الاتكاء في الخطب عند أبي داوود (١٠٩٦) ، وابن ماجه (١١٠٧) .

(٣) رواه البخاري (٢٦٩٧) ، ومسلم (١٧١٨) .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٧٤) ، وأصله عند ابن بطة في « الإبانة » (٥١٩) .

(٥) ذكره صاحب « القوت » (١/ ١٧٤) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٤٤٤) .

(٦) أي : في إزاحة مُلكه وهدم مملكته .

في خدمةٍ معيَّنةٍ ، وذلكَ قدْ يُغفَرُ ؛ فأمَّا قلْبُ الدولةِ . . فلا .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (ما تكلَّمَ فيهِ السلفُ . . فالسكوتُ عنهُ جفاءٌ ، وما سكتَ عنهُ السلفُ . . فالكلامُ فيهِ تكلُّفٌ)[1] .

وقالَ آخرُ : (الحقُّ ثقيلٌ ، مَنْ جاوزَهُ . . ظَلَمَ ، ومَنْ قصرَ عنهُ . . عجَزَ ، ومَنْ وقفَ معهُ . . اكتفىٰ)[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بالنَّمَطِ الأوسطِ الذي يرجعُ إليهِ العالي ، ويرتفعُ إليهِ التالي »[3] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (إنَّ الضلالةَ لها حلاوةٌ في قلوبِ أهلِها .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾)[4] .

فكلُّ ما أُحدثَ بعدَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ممَّا جاوزَ قدْرَ الضرورةِ والحاجةِ . . فهوَ مِنَ اللعبِ واللهوِ .

وحُكِيَ عنْ إبليسَ لعنَهُ اللهُ أنَّهُ بثَّ جنودَهُ في وقتِ الصحابةِ رضيَ اللهُ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٧٥) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٧٥) .
(٣) رواه ابن أبي شيبة موقوفاً علىٰ علي رضي الله عنه في « المصنف » (٣٥٦٣٩) ، وبلفظ : (خير الناس هٰذا النمط الأوسط ، يلحق بهم التالي ، ويرجع إليهم العالي) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٧٥) .

عنهُمْ ، فرجعوا إليهِ محسورينَ ، فقالَ : ما شأنُكُمْ ؟ فقالوا : ما رأينا مثلَ هؤلاءِ ؛ ما نصيبُ منهُمْ شيئاً وقدْ أتعبونا ، فقالَ : إنَّكُمْ لا تقدرونَ عليهِمْ ؛ قدْ صحبوا نبيَّهُمْ ، وشهدوا تنزيلَ ربِّهِمْ ، ولكنْ سيأتي بعدَهُمْ قومٌ تنالونَ منهُمْ حاجتكُمْ .

فلما جاءَ التابعونَ . . بثَّ جنودَهُ ، فرجعوا إليهِ منكوسينَ منكسرينَ ، فقالوا : ما رأينا أعجبَ مِنْ هؤلاءِ ؛ نصيبُ منهُمُ الشيءَ بعدَ الشيءِ مِنَ الذنوبِ ، فإذا كانَ آخرُ النهارِ . . أخذوا في الاستغفارِ ، فيبدِّلُ اللهُ سيئاتِهِمْ حسناتٍ ، فقالَ : إنَّكُمْ لنْ تنالوا مِنْ هؤلاءِ شيئاً لصحَّةِ توحيدِهِمْ ، واتباعِهِمْ لسنَّةِ نبيِّهِمْ ، ولكنْ سيأتي بعدَ هؤلاءِ قومٌ تَقَرُّ أعينُكُمْ بِهِمْ ، تلعبونَ بِهِمْ لَعِباً ، وتقودونَهُمْ بأزمَّةِ أهوائِهِمْ كيفَ شئتُمْ ، إنِ استغفروا . . لمْ يغفرْ لهُمْ ، ولا يتوبونَ فيبدِّلُ اللهُ سيئاتِهِمْ حسناتٍ .

قالَ : فجاءَ قومٌ بعدَ القرنِ الأوَّلِ ، فبثَّ فيهِمُ الأهواءَ ، وزيَّنَ لهُمُ البدَعَ ، فاستحلُّوها[1] ، واتخذوها ديناً ، لا يستغفرونَ اللهَ منها ، ولا يتوبونَ عنها ، فسلَّطَ عليهِمُ الأعداءَ ، وقادُوهُمْ أينَ شاؤوا[2] .

فإنْ قلتَ : مِنْ أينَ عَرَفَ قائلُ هٰذا ما قالَهُ إبليسُ ولمْ يشاهدْ إبليسَ ولا حدَّثَهُ بذلكَ ؟

---

(١) بتشديد اللام من الحلال ، أو تخفيفها من الحلاوة ، وعندها تفتح اللام .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٧٥) .

فاعلمْ : أنَّ أربابَ القلوبِ يُكاشَفونَ بأسرارِ الملكوتِ ؛ تارةً علىٰ سبيلِ الإلهامِ بأنْ يخطرَ لهُمْ علىٰ سبيلِ الورودِ عليهِمْ مِنْ حيثُ لا يعلمونَ ، وتارةً علىٰ سبيلِ الرؤيا الصادقةِ ، وتارةً في اليقظةِ علىٰ سبيلِ كشْفِ المعاني بمشاهدةِ الأمثلةِ كما يكونُ في المنامِ ، وهـٰذا أعلى الدرجاتِ ، وهيَ مِنْ درجاتِ النبوَّةِ العاليةِ ؛ كما أنَّ الرؤيا الصادقةَ جزءٌ مِنْ ستةٍ وأربعينَ جزءاً مِنَ النبوَّةِ .

فإيَّاكَ أنْ يكونَ حظُّكَ مِنَ العلمِ إنكارَ كلِّ ما جاوزَ حدَّ قصورِكَ ؛ ففيهِ هلكَ المتحذلقونَ مِنَ العلماءِ[1] ، الزاعمونَ أنَّهُمْ أحاطوا بعلومِ المعقولِ .

والجهلُ خيرٌ مِنْ عقلٍ يدعو إلىٰ إنكارِ مثلِ هـٰذهِ الأمورِ لأولياءِ اللهِ تعالىٰ[2] ، ومَنْ أنكرَ ذلكَ للأولياءِ . . لزمَهُ إنكارُهُ للأنبياءِ ، وكانَ خارجاً عَنِ الدينِ بالكليَّةِ[3] .

وقالَ بعضُ العارفينَ : (إنَّما انقطعَ الأبدالُ في أطرافِ الأرضِ واستتروا عنْ أعينِ الجمهورِ . . لأنَّهُمْ لا يطيقونَ النظرَ إلىٰ علماءِ الوقتِ ؛ لأنَّهُمْ

---

(١) **المتحذلقون** : المتكيِّسون الذين يتظرَّفون في الكلام طلباً لزيادة القدْر عند الناس .

(٢) لأن أشرف أقوال الجاهلين التسليم والتفويض لما لا يعلمون ، وهو أقل أحوال العالمين ، فبالنظر إلىٰ ذلك كان بعضُ الجهل خيراً من العلم . « إتحاف » (١/ ٤٤٦) .

(٣) لأن طريق الفيض واحد ، وإنما يختلف تلقيه بحسب الاستعدادات ، فما كان للأنبياء . . فهو للأولياء مع مباينة الاستعداد ، ما عدا مرتبة النبوة التي لا يلحقها لاحق ، ولا يشق غبارها سابق ، فإنكار ما للأولياء يورثه الإنكار لما للأنبياء . « إتحاف » (١/ ٤٤٦) .

عندَهمْ جهَّالٌ باللهِ تعالىٰ ، وهُمْ عندَ أنفسِهِمْ وعندَ الجاهلينَ علماءُ)[1] .

وقالَ سهلٌ التُّسْتَريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ مِنْ أعظمِ المعاصي الجهلَ بالجهلِ ، والنظرَ إلى العامَّةِ ، واستماعَ كلامِ أهلِ الغفلةِ)[1] .

وكلُّ عالمٍ خاضَ في الدنيا فلا ينبغي أنْ يُصغَىٰ إلىٰ قولِهِ ، بلْ ينبغي أنْ يُتَّهمَ في كلِّ ما يقولُ ؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ يخوضُ فيما أحبَّ ، ويدفعُ ما لا يوافقُ محبوبَهُ ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ .

والعوامُّ العصاةُ أسعدُ حالاً مِنَ الجهَّالِ بطريقِ الدينِ ، المعتقدينَ أنَّهمْ مِنَ العلماءِ ؛ لأنَّ العاميَّ العاصيَ معترفٌ بتقصيرِهِ ، فيستغفرُ ويتوبُ ، وهـٰذا الجاهلُ الظانُّ أنَّهُ عالمٌ ، وأنَّ ما هوَ مشتغلٌ بهِ منَ العلومِ التي هيَ وسائلُهُ إلى الدنيا مِنْ سلوكِ طريقِ الدينِ . . فلا يتوبُ ولا يستغفرُ ، بلْ لا يزالُ مستمرّاً عليهِ إلى الموتِ .

وإذْ غلبَ هـٰذا علىٰ أكثرِ الناسِ إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ تعالىٰ ، وانقطعَ الطمعُ مِنْ إصلاحِهِمْ . . فالأسلمُ لدينِ المحتاطِ العزلةُ والانفرادُ عنهُمْ ، كما سيأتي في كتابِ العزلةِ بيانُهُ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

ولذلكَ كتبَ يوسفُ بنُ أسباطٍ إلىٰ حذيفةَ المَرْعشيِّ : (ما ظنُّكَ بمنْ بقيَ لا يجدُ أحداً يذكرُ اللهَ تعالىٰ معهُ إلا كانَ آثماً ، وكانتْ مذاكرتُهُ معصيةً ؟)[1] ، وذلكَ أنَّهُ لا يجدُ أهلَهُ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٧٦) .

ولقدْ صدقَ ؛ فإنَّ مخالِطَ الناسِ لا ينفكُّ عنْ غِيبةٍ أوْ عنْ سماعِ غيبةٍ ، أوْ عنْ سكوتٍ علىٰ منكرٍ ، وأحسنُ أحوالِهِ أنْ يفيدَ علماً أو يستفيدَهُ .

ولوْ تأمَّلَ هـٰذا المسكينُ وعلمَ أنَّ إفادتَهُ لا تخلُو عنْ شوائبِ الرياءِ وطلبِ الجمعِ والرئاسةِ . . علمَ أنَّ المستفيدَ إنَّما يريدُ أنْ يجعلَ ذلكَ آلةً إلىٰ طلبِ الدنيا ، ووسيلةً إلى الشرِّ ، فيكونَ هوَ مُعيناً لهُ علىٰ ذلكَ ؛ ورِدْءاً وظهيراً ومهيئاً لأسبابِهِ ؛ كالذي يبيعُ السيفَ مِنْ قطَّاعِ الطريقِ ، فالعلمُ كالسيفِ ، وصلاحُهُ للخيرِ كصلاحِ السيفِ للغزوِ ، وذلكَ لا يرخِّصُ في البيعِ ممَّنْ يعلمُ بقرائنِ أحوالِهِ أنَّهُ يريدُ بهِ الاستعانةَ علىٰ قطْعِ الطريقِ .

فهـٰذهِ اثنتا عشرةَ علامةً مِنْ علاماتِ علماءِ الآخرةِ ، تجمعُ كلُّ واحدةٍ منها جُمَلاً مِنْ أخلاقِ علماءِ السلفِ .

فكنْ أحدَ رجلينِ : إمَّا مُتَّصفاً بهـٰذهِ الصفاتِ ، أوْ معترفاً بالتقصيرِ معَ الإقرارِ بهِ ، وإيَّاكَ أنْ تكونَ الثالثَ فتلبِّسَ علىٰ نفسِكَ بأنْ تلقِّبَ آلةَ الدنيا بالدينِ ، وتشبِّهَ سيرةَ البطَّالينَ بسيرةِ العلماءِ الراسخينَ ، وتلتحقَ بجهلِكَ وإنكارِكَ بزمرةِ الهالكينَ الآيسينَ .

نعوذُ باللهِ مِنْ خدعِ الشيطانِ ، فبها هلكَ الجمهورُ ، ونسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يجعلَنا ممَّنْ لا تغرُّهُ الحياةُ الدنيا ، ولا يغرُّهُ باللهِ الغَرورُ .

* * *